روايات عبير

متى تذوب الثلوج؟

WWW.REWITY.COM

مرمورية

No. 077

دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

روايات عبير

متى تذوب الثلوج؟

قبلت (أندريا) المخاطرة من أجل المحافظة على سمعة عمها الذى تولى تربيتها، وإنقاذ ابنة عمها الطائشة (كلير) مما كادت أن تدمر الأسرة به.

لم تكن تدرى عندما وصلت إلى أوفيرن و التقت بليز أنها وقعت فى مصيدة لاتستطيع الفكاك منها. ووسط الأساطير المرعبة عاشت شهوراً .. لاتعلم كيف انقضت من العمر .. استطاعت خلالها أن تغير وأن تتغير .. وفى اللحظة التى أصبح من حقها أن تغادر فيرن .. كان القرار غريب جداً ومحيراً...!!

I.S.B.N. 977-376-179-7

W.Salama 0101517873

سوريا	٧٥ ل.س	البحرين	٧٥٠ فلس
مصر	٥ جنيه	قطر	٨ ريال
لبنان	٢٥٠٠ ل.ل	مسقط	٧٥٠ بيسة
الأردن	١ دينار	المغرب	١٥ درهم
السعودية	١٠ ريال	ليبيا	١,٥ دينار
الكويت	٧٥٠ فلس	تونس	١,٥ دينار
الإمارات	١٠ درهم	اليمن	٢٠٠ ريال

No. 077

روايات عبير

متى تذوب الثلوج

سارة كريفن

الناشر
دار الكتاب العربي
دمشق - القاهرة

١- زواج بالمراسلة

«ارجوك يا اندريا يجب ان تساعدينى ، فليس لى سواك».

«انا لا اعرف شيئاً عما تتكلمين ، فنحن لم نعد اطفالا . ربما كان بامكانى انقاذك فى الماضى من مشاكلك غير انك الآن فتاة ناضجة وعليك ان تتدبرى امورك بنفسك».

«لا تقسى على يا آندى»

قالت كلير بانكسار .

«حان الوقت لكى تتعرضى للقسوة . افسدك عمى ماكس من فرط التدليل وانت تدركين هذا».

امتلأت عينا كلير الكبيرتان بالدموع وأحنت رأسها وقالت :

«أعلم هذا . لكنك أملى الوحيد وعليك ان تساعدينى».

«هراء!»

صرخت اندريا بصوت حاد وتابعت :

«ومهما يكن من أمر ، نصيحتى اليك ان تذهبى الى بيتر وتخبريه بالامر.

فأنت ستزفين اليه بعد ستة اسابيع ولكن يمكنك اخفاء اى شئ عنه عندئذ».

قالت كلير وهى تبكى:

«انا فى ورطة رهيبة ! وقد لا يتم الزواج وهذا سيجعل ابى فريسة للمرض مرة اخرى . انا متأكدة من ذلك».

«يحسن ان تخبرينى بالامر اذن».

كانت كلير تتمتع بجمال باهر تصعب مقاومته كما كانت على اقتناع تام من ان بيتر وحدة قادر على اسعادها . وكان هذا هو المهم فى نظر اندريا ولو انها على يقين من ان بيتر ما تقدم طالباً الزواج من كلير الا انها ابنة ماكسويل وبستون بالذات .

«حسنا . ماذا يجرى اذن ؟».

فتنهدت كلير من اعماقها وهى تقول :

«وهناك شخص آخر».

لم تصدق اندريا اذنيها فقد كانت متأكدة من اخلاص كلير لبيتر.

«هل اعرفه ؟».

«كلا انه فرنسى».

«أحسب انك التقيته عندما كنت عند مارتين فى باريس».

قالت اندريا وهى تحاول عبثاً ان تسترجع فى ذاكرتها ما كانت تذكره لها كلير فى رسائلها القليلة ثم تابعت :

«انه ليس جاك يا كلير . أم انه جاك ؟».

سارعت كلير تنفى هذا ثم قالت وفى صوتها وعينيها امتعاض شديد:

«غير انه السبب فى كل ما حصل . لو لم أكن مأخوذة به آنذاك ما كنت لأتورط مع هذا اللوفالييه».

«اسمه لوفالييه اذن وكيف التقيت به ؟».

«لم التقه بعد».

أجابتها كلير ... فرمتها أندريا بنظرة شفافة جعلتها تغمض عينيها وتطلب من الله ان يهبها نعمة الصبر ثم قالت :

«لا يعقل ان يقع الانسان فى حب شخص لا يعرفه».

«انا لا أحبه قلت لك انى لم اره ابداً . ولكن عندما تخلى عنى جاك من اجل هذه اللعينة جانى، شعرت برغبة فى الموت ولم يبق لأى شئ معنى ، وعندما عرض على لوفالييه الزواج ، خيل الى ان الله ارسل لى ما يصون كبريائى ويحفظ كرامتى».

«وكيف يعرض عليك الزواج شخص غريب لا تعرفينه ؟».

«ليس هذا ما حصل بالضبط تراسلنا قبل ذلك. انه احد اقرباء مارتين، ولكن عائلتها لا تتحدث عنه كثيراً ويعتبرونه كالخروف الضال. كان يقيم فى مكان ما فى الخارج وعندما ورث هذا القصر فى اوفيرن عاد واتصل بعائلة مارتين حاملا غصن الزيتون على ما اعتقد . لكنهم تجاهلوا بادرته. وعندما لم يجبه احد قررنا انا ومارتين ان نبعث له برسالة على سبيل المزاح . ولكنه لم يتأخر فى الاجابة اذ وصلت

www.rewity.com

رسالته فى البريد التالى . كانت رسالة لطيفة ولكن بدا واضحاً انه وجد الامر مسلياً وكأنه ادرك ما كنا نرمى اليه . ولكن مارتين لم تعد تجسر على متابعة المراسلة فتوقفت عن الكتابة خوفاً من ان تكتشف عائلتها هذا الامر وتحرمها من العطلة الرياضية التى كانت موعودة بها. فكتبت الرسالة الثانية بنفسى وارسلتها له. وهكذا ابتدأنا نتبادل الرسائل واخبرته بأمور كثيرة حتى اننى اخبرته عن جاك وشعرت براحة كبرى بعد ان افضيت له بما فى نفسى. كان هذا سهلا لاننى لم اكن اعرفه ولم اشعر باى حرج... بعد هذا عرض على الزواج».

«لكن لماذا ؟ هل ذكر سبباً ؟ ام اشفق عليك ؟».

اجابت كلير ببرود :

«كلا، ولقد اوضح هذا الامر جيداً وجاء عرضه اقرب الى عرض عمل. قال انه كان بحاجة الى زوجة وذلك لتسوية قضية قانونية . لم يذكر نوع القضية ولكنه قال انه يمكن ان يساعد كل منا الآخر فهو بحاجة الى زوجة وانا بحاجة الى من ينتشلنى من حالة اليأس والضياع التى كنت اتخبط فيها. ولقد المح بأننى انا التى اوحيت له بهذا التدبير».

«كان عليك ان تضعى حداً لهذه القضية بطريقة ما».

خيم صمت ثقيل قطعته كلير بقولها :

«لقد قبلت عرضه !».

ولم تسمح لعينيها بأن تلتقى بعينى اندريا الكستنائيتين .

«ما هذا الذى فعلت يا كلير ؟».

«لا تنظرى الى هكذا . قلت لك اننى كنت فى حالة يأس كان هذا هو الحل الوحيد امامى. وكيف اثبت لجاك بأننى لم أعد اكترث لأمره؟».

وبعد صمت قصير تابعت :

«انها الحقيقة . ليتنى فقط ادركتها آنذاك».

هذا جنون !».

«شعرت بطمأنينة غريبة بعد ذلك وكنت بالفعل عازمة على المضى فى هذا الامر الى النهاية وبدا لى ان زواج العقل هو افضل زواج . ثم ارسل لى بعض الاوراق لأوقعها وبعض المال ايضاً لشراء جهاز العرس . لم اكن قد اخبرته اى شئ عن والدى وظن اننى كنت اقيم مع عائلة مارتين على ما اعتقد».

«وماذا فعلت بالمال ؟».

«لم انفقه بالطبع... اعترف اننى كنت على وشك انفاقه لولا النوبة القلبية التى اصابت والدى فى ذلك الوقت . وعندما ارسلت والدتى فى طلبى نسيت كل شئ آخر».

دعينا من المال الآن واخبرينى باقى القصة. لابد ان هناك المزيد».

«ولكنك تعرفين القصة . التقيت بيتر بعد ذلك وفى الحال وقع احدنا فى غرام الآخر وتبخر بليز من رأسى تماماً ولم يعد يخطر فى بالى الا كحلم مزعج ».

«ومتى افقت من هذا الحلم ؟».

سألتها اندريا بتهكم .

تناولت كلير حقيبة يدها البيضاء واخرجت منها رزمة من الاوراق المالية وبعض الرسائل وقالت :

«عندما وصلتنى هذه ! وصلنى الخطاب الاول بواسطة مارتين . كان يحتوى على جميع التفاصيل المتعلقة بالزواج . اعتقدت بان عدم الرد سيجعله يتخلى عن الامر فقد يظن بان الرسالة لم تصلنى».

«وهذا ما لم يحدث بالطبع».

«كلا وصلتنى الرسالة الثانية فوراً وليس بواسطة مارتين هذه المرة. ولابد انه قام على ما يبدو ببعض التحريات واكتشف عنوانى بطريقة ما. كان فى الرسالة مبلغ من المال قال انه ثمن تذكره السفر وطلب منى ان اخبره بموعد وصولى الى باريس لكى يقوم ببعض الترتيبات لاستقبالى ويرسل سيارة تقلنى الى سان جان دى روش حيث يوجد قصره.

كان على بالطبع ان اجيبه... أدعيت المرض ومرت عدة اسابيع بدون ان اتلقى منه اى شئ وراودنى امل بانه تخلى عن الفكرة وكنت فى ذلك الوقت قد اعلنت خطوبتى الى بيتر وكان كل شئ رائعاً . لكن لم يدم هذا النعيم طويلا اذ وصلتنى رسالة اخرى . ذكر فيها انه واثق باننى تماثلت الى الشفاء وان الزواج يجب ان يعقد فى اقرب وقت».

احنت كلير رأسها قليلا وتنهدت قبل ان تتابع :

«لم يكن بوسعى ان اتجاهل تلك الرسالة. كان على ان اجيب فكتبت اقول له بأننى غيرت رأيى واننى لم اعد راغبة فى الزواج منه».

«هل اتيت على ذكر بيتر ؟».

«كلا ، لم اخبره لحسن الحظ».

قالت ذلك وتجهمت ملامحها واخذت من بين الرسائل واحدة ناولتها لاندريا وهى تقول :

«لاننى تلقيت هذه منه . لابد انه ارسلها عندما استلم رسالتى».

فتحت اندريا الرسالة وراحت تقرأ :

«يؤسفنى يا آنسة هذا التراجع المفاجئ فى موقفك وعدم رغبتك فى تنفيذ العقد الذى بيننا . وعلى ان اخبرك الآن بانه لم يعد بامكانى التراجع وارانى مضطراً لاتخاذ الاجراءات القانونية ضدك لأنك نكثت بالوعد ولم تنفذى الاتفاق الذى تم بيننا . وأرى من المناسب تذكيرك بان بين يدى وثيقة تحمل توقيعك وثابت فيها موافقتك».

كانت الرسالة مطبوعة على الآلة الكاتبة والتوقيع واضحاً .

طوت اندريا الرسالة وهى تشعر بانقباض شديد وبعد تفكير قالت:

«اعتقد انه يعنى ما يقول».

وتوقفت عن الكلام عندما رأت النظرة المتأملة فى عينى ابنة عمها لكنها عادت وسألتها :

«وهل يستطيع ان يقاضيك لمجرد النكوث بوعدك ؟».

«لا ادرى ، لكنه بالتأكيد قادر على اثارة فضيحة كبرى حتى لو لم يكن فى نيته ان يرفع الامر الى القضاء. وانت تعلمين ان اصحاب الصحف لن يترددوا فى نشر مثل هذه الاخبار خاصة لانها تتعلق بوالدى. ولا يجوز يا آندى ان اعرض ابى لمثل هذا الامر. اذا تسرب اى شئ من هذا للصحف فان ابى سيصاب بنوبة قلبية اخرى تكون القاضية

هذه المرة. ولطالما حذرنا الطبيب بوجوب تجنيبه الانفعال والغضب».

وأضافت من بين دموعها:

«هل ستساعدينى يا آندى ؟».

«لا أدرى ما الذى بامكانى فعله، ولكننى لن اضن عليك بالمساعدة».

«يجب قبل كل شئ ان نستعيد الرسالة التى اقول له فيها اننى موافقة على الزواج منه».

قالت كلير وهى تستوى فى مقعدها ويعود اليها تفاؤلها ثم اضافت:

«وهذا العقد ! كيف وقعته ؟ لابد اننى ام اكن وقتها فى كامل قواى العقلية».

«بالتأكيد».

اجابتها اندريا بنبرة جافة واضافت :

«وما عساك ان تفعلى؟ هل ستطلبين اليه ان يعيد اليك رسائلك لتتحققى اذا كانت بالفعل تشكل علاقة قانونية. اؤكد لك انه لن يتقبل هذا».

«لن يتقبل هذا بالطبع لذلك يجب ان تذهبى بنفسك الى سان جان دى روش وتسرقيها منه. لابد أنه يحتفظ بها فى مكان ما فى قصره».

ففرت اندريا فمها مصعوقة وصرخت :

«لقد جننت . لن اذهب».

«ولكنه الحل الوحيد. هل تريدينني ان اذهب بنفسى ؟ قد يرغمنى عندئذ على اى شئ».

«ولكنه بالتأكيد سيفرش الأرض بالسجاد لاستقبالى انا!».

«ربما فعل هذا اذا اعتقد انك انا».

«انك فعلاً مجنونة !»

قالت لها اندريا واضافت بعد تفكير :

«وهل تظنين باننى سأهرع الى فرنسا لمجرد سرقة بعض الرسائل من شخص انت فرشت له دربه بالورود وقطعت له الوعود الكاذبة ؟ انت ذاتك تقولين بانك اذا ذهبت الى هناك قد يرغمك على اى شئ . وماذا عنى انا ؟ الن يرغمنى انا على اشياء ظناً منه اننى انت ؟».

«كلا ، كلا !».

اجابتها كلير مهدئة تطلعها على تفاصيل خطة موضوعة :

«اذا حصل هذا فما عليك الا ان تطلعيه على الحقيقة وتقولى له من انت».

حملقت اندريا فى وجهها مشدوهة ثم قالت :

«لقد وضعت الخطة بحذافيرها».

«سوف يتخلى عنى بيتر ان هو عرف بالأمر . وسوف تشجعه امه على تركى فهى تكرهنى . آه يا آندى سوف انتحر لو خسرت بيتر».

نظرت اليها اندريا ببرود وقالت :

بدلاً من الانتحار يمكنك ان تتزوجى من هذا اللوفالييه . الم تراودك فكرة الزواج منه فى الماضى ؟».

«ظننتك ستقدرين موقفى لكنك بدون قلب !».

قالت هذا وهى تتفرس فى وجه ابنه عمها ولما وجدت ان ملامحها ظلت جامدة لا تلين تابعت تقول :

«افعلى هذا من اجل ابى ان لم يكن من اجلى انا . انت تعلمين انه يعتبرك كابنته تماماً ...».

قاطعتها اندريا والاحمرار يكسو وجهها :

«لا انسى ابداً فضل والدك على فى مساعدتى على مصاريف دراستى . لم يكن من اللائق ان تذكرينى بذلك ولكن الابتزاز على ما يبدو مرض ينتقل بالعدوى !».

ونهضت اندريا من مكانها وتناولت معطفها وحقيبة يدها وهمت بالانصراف :

«لقد اغضبتك».

قالت لها كلير ثم اضافت معتذرة :

«لم يكن ذلك قصدى ولكننى قلقة جداً يا آندى».

«اعلم ذلك لابد ان نجد حلا . وأعدك بأن اعمل ما بوسعى».

كانت اندريا مضطربة وهى تهبط السلم المؤدى الى قاعة الاستقبال فى الطابق السفلى . لقد صفعتها الحقيقة فى كلام كلير . كان والدها قد توفى وهى فى سن صغيرة وما لبثت امها ان تبعته فاحتضنها عمها وجعل من منزله منزلاً لها لم تعرف سواه منذ وفاة والديها .

وكان عمها ماكس وزوجته ماريان بمثابة الأب والأم لها ولم يدعاها

تحتاج الى شئ .

وقفت اندريا عند اسفل الدرج وأخذت تفتش فى حقيبتها عن مفاتيح سيارتها . وراحت الافكار تدور فى رأسها . كانت فى لندن عندما اصابت عمها النوبة الاولى وكانت قريبة منه ومن زوجته التى لازمته طوال فترة مرضه ولذلك فهى تدرك خطورة وضعه الصحى اكثر من كلير ولطالما سمعت الاطباء ينصحونه بالابتعاد عن كل ما من شأنه ان يعكر الصفو .

وجدت مفاتيحها وراحت تنقلها من يد الى اخرى بصورة آلية وعيناها مسمرتان على الارض لا تريان شيئاً . لو ان بيتر كان شخصاً مختلفاً لذهبت اليه طالبة منه النصح ولكنه ، بما عرف عنه من تزمت وتمسك بالتقاليد ستصدمه أخبار كلير هذه وتجعله يصدق تلميحات امه عن عدم صلاح كلير كزوجه له . وكانت اندريا تعلم فى قرارة نفسها ان الليدى كريجى لم تكن متحاملة على كلير بل ان حماقات كلير العديدة كانت لافتة للنظر.

قطع عليها تفكيرها صوت باب انفتح . رفعت اندريا عينيها ورأت امرأة عمها ماريان تخرج منه . توقفت عندما رأتها وقالت :

«ها انت هنا يا عزيزتى. كم هى انانية ابنتى كلير لانها تستأثر بك طوال الوقت. أوى عمك ماكس مبكراً الى فراشه وانا وحدى. ابقى معى بعض الوقت ريثما نتناول معاً شراب الشوكولا الساخن».

نزلت اندريا على طلب امرأة عمها مرغمة . كانت تعلم كم هى متوقدة الذكاء وشديدة الملاحظة وكان على اندريا ان تتقن دورها جداً

حتى لا تلاحظ ما كان يعتريها من مشاعر وقلق. تناولت من يدها فنجان الشوكولا وراحت تشربه ببطء وسمعتها تسألها:

«هل كنتما تتحدثان عن العرس ؟ كنا انا وعمك ماكس فى حديث طويل اليوم . قال لى انه سعيد جداً لكون كلير ابنتنا الوحيدة . فلن يكون من السهل عليه ان يواجه مرة اخرى ما يصاحب تلك الأعراس من صخب وتحضير».

«ربما انت على حق».

قالت اندريا وهى تضع الكوب من يدها . ثم استفسرت عن صحة عمها قائلة .

«وكيف حال عمى اليوم ؟».

«بخير ، يمكنى ان امنحه شهادة حسن سلوك ، فهو يحاول جاهداً ان يبتعد عن كل ما من شأنه ان يثر عواطفه ويشغل باله».

توقفت ماريان عن الكلام برهة وأخفضت صوتها وكأنها على وشك ان تبوح بسر خطير ثم تابعت :

«ليس من المفروض ان ابوح بهذا الامر ولكننى سأقول لك شيئاً اتمنى ان يبقى سراً بيننا . هناك كلام عن منحه لقب فارس فى الدورة المقبلة وهذا امر طالما حلم به وتمناه».

«هذا رائع».

صرخت اندريا بفرح . وكان فرحها صادقاً وعارماً .

ثم توجهت الى امرأة عمها تطمئنها ان سرها فى مأمن وقالت :

«اطمئنى فلن انبس ببنت شفة ولكن هل هذا القرار نهائى ؟».

«تقريباً».

قالت لها ماريان وتابعت :

«ذلك اذا لم يحدث ما يفسد عليه الأمر وهذا أحد الاسباب التى من اجلها رحبت بفكرة زواج كلير من بيتر . انت تعلمين كم هو محافظ عمك ، وكم هى اراؤه حول الشرف صارمة . انه لا يساوم ابداً فى مواضيع الاخلاق والاصول والأدب. ولا يمكن ان يرضى عن اى سلوك مناف للأخلاق . كنت دائما اخشى ان تقدم كلير على سلوك فاضح وتصل اخبارها الى الصحف . والصحف لا ترحم كما تعلمين ولن يفوت اصحابها فرصة نشر اى مادة مثيرة . وعندئذ سوف يضطر عمك ماكس الى رفض اللقب».

«غير معقول !».

نظرت اندريا الى امرأة عمها ملياً وقررت بينها وبين نفسها ان تعمل المستحيل لتحميها من كل ما يمكن ان يؤدى الى حرمانها من هذا الصفاء الذى كانت تتمتع به . ابتسمت اندريا وهى تنهض من مكانها مستأذنة امرأة عمها بالانصراف .

***

حمدت اندريا ربها الف مرة لأن المسافة الطويلة التى قطعتها من باريس الى هذا المكان كانت كافية لتعتاد قيادة السيارة فى مثل هذه الطرق الضيقة والوعرة . كانت يداها تتشبثان بعجلة القيادة باصرار وهى تصعد بالسيارة منعطفاً بعد آخر .

انقبضت اساريرها وهى تنظر الى خريطة الطريق . وادركت ان بليز لوفالييه لم يكن ينوى تقديم اى تسهيلات ! وتنازلات لزوجة المستقبل ، والا لما طلب منها المجئ بمفردها الى هذا المكان المقفر .

اعتبرت اندريا هذا الامر بمثابة انذار ، فكم يلزمها من الشجاعة والثقة بالنفس لتستطيع العيش فى هذه المنطقة الجبلية ذات البراكين الخامدة ، والتى بدت بيوتها وكأنها شيدت من الحمم الطبيعية من حولها وكأنها تنطق بالقساوة والبأس وكان عليها ان تذكر نفسها بانها لن تعيش فى هذا المكان كل حياتها ، وعلت شفتيها ابتسامة ساخرة وهى تتخيل كلير فى مكانها . ماذا كانت ستفعل وهى ترى الوادى السحيق وهذا الطريق الضيق الوعر ؟ كانت بدون شك ستفقد اعصابها وتتراجع فى وسط الطريق رافضة التقدم .

اعادتها الخريطة الى الواقع المؤلم. كان امامها بضع كيلومترات قبل ان تصل الى حيث تقصد. علا صوت فى داخلها يطلب اليها العودة من حيث اتت . يمكنها ان تترك السيارة فى كليرمون فران وتستقل القطار الى باريس. ولكن ما الذى سوف يحل بعملها ماكس وبامرأة عمها ماريان؟ أمن اجل كلير وحدها اقدمت على هذه المغامرة؟

حبذا لو استطاعت ان تشاطر كلير رأيها فيما يتعلق بالاوراق، اذ كانت على قناعه تامة بان اندريا سوف تعثر عليها حالما تصل. ولكن لم يكن هذا شعور اندريا ابداً. ولم تملك اندريا الا التسليم بما قالت كلير. كانت تحفظ كلمات رسالة لوفالييه الاخيرة عن ظهر قلب لكثرة ما قرأتها. من يظن نفسه هذا الرجل؟ وهل كان يعتقد بان سعادة الناس واستقرارهم هى ملكه يفعل بها ما يشاء؟ وهل كان ليرضى ان

تشاطره الحياة زوجة لا تكن له اى عاطفة ولا يربطها به الا وعد سخيف قطعته على نفسها فى لحظة طيش ؟ لم تكن تذكر الا انه بحجة الى زوجة من اجل تسوية قانونية . كانت كلير قد اتلفت جميع رسائله الاولى ولم تحتفظ الا ببعضها وكانت هذه خالية من اى ذكر لهذا الموضوع كما انه لم يأت فيها على ذكر مارتين وعائلتها ابداً .

وعلى اى حال كيف يرضون عنه وهو لا يتورع عن الابتزاز ؟

كانت اندريا كلما تقدمت شبراً يزداد قلقها ويشتد الاضطراب فى نفسها. انه ضرب من الجنون هذا العمل الذى هى مقدمة عليه. انها لا تعرف شيئاً عن هذا الرجل الذى كان بانتظارها. ربما كان مجرماً فاراً اختار هذا المكان النائى للابتعاد عن الناس. وان لم يكن كذلك فهو بالتأكيد شخص منبوذ ليست لدية القدرة على مواجهة الناس ولذلك فضل العزلة فى هذه الارض المقفرة والا لماذا يرضى بزواج بالمراسلة . لقد قال هو ذاته لكير بانه يكتفى بزواج صورى . فلماذا يا ترى ؟

حاولت اندريا ان تتصور رد فعل بليز لوفالييه عندما وصلته رسالة كلير الاخيرة التى تعلمه فيها بعزمها على المضى فى الامر وتخبره عن موعد وصولها. توقعت كلير واندريا ان تصلهما رسالة منه لكنه خيب ظنهما ولم يعبث باى رسالة ولذلك راود اندريا امل بان يكون قد اهمل ايضا ارسال السيارة وفى تلك الحالة ستجد اندريا العذر المقبول لتعود من حيث اتت. خاب ظنها للمرة الثانية. ربما اهمل بليز لوفالييه الاجابة على رسالة تلقاها ولكن ترتيباته كانت بدون ريب فى غاية الدقة.

عندما وصلت اندريا أخيراً الى سان جان دى روش كان المطر ينهمر بغزارة بينما كانت تشعر بألم كتفيها وتشنج فى عنقها وساعديها

من قيادة السيارة .

لم تكن القرية تختلف عن غيرها من القرى التى مرت بها فى طريقها . مجموعة من البيوت شيدت حول ساحة مربعة فى وسطها ينبوع ماء . واستوقف نظر اندريا برج ابيض ارتفع بشموخ فوق كل البيوت وبدا كأنه يناطح السحاب . لم يخطئ من اطلق على هذه القرية اسمها ، قالت اندريا فى نفسها ، اذ بدت وكأنها نحتت فى الصخر ورأت فى خيالها صورة القصر كجسم كبير جاشم فوق اعلى قمة ، تحته البيوت كلها .

تابعت طريقها والافكار تحتمل فى رأسها وفجأة رأت فى الضوء المنبعث من سيارتها بناءاً متداعياً . تمهلت قليلا ومدت رأسها من النافذة لتتبين المشهد بوضوح اكثر . بدا كأحد البيوت التى تشيد عادة قرب بوابات القصور وتخصص للحراس ولكن ما لها ولهذا البناء المتداعى . تابعت تقدمها وفجأة اوقفت السيارة وأطفأت المحرك وحدقت مشدوهة بالمشهد الذى ارتسم امامها .

قصر فى اوفيرن ! .

هذا ما قالته كلير . وما كانت الصورة التى رسمتها اندريا فى ذهنها لتطابق فى اى شئ هذه الخرابة المتداعية التى ينطق كل حجر فيها بسنوات من الاهمال .

كان البناء ضخماً ومؤلفاً من عدة اجنحة فى وسطها برج جميل . وكان المشهد اشبه بصورة فى احدى اساطير القرون الوسطى . وبدت جميع الاجنحة ماعدا واحداً مهدمة وفى حالة يرثى لها . حتى ذاك الجناح الوحيد الذى بدا صالحاً نوعاً ما للسكن كانت ابوابه مخلعة

وسطحه تنقصه الحجارة ونوافذه مكسرة . بدا المكان مهجوراً تماماً وأوشكت اندريا ان تعود بسيارتها لولا انها رأت خيطاً من الدخان يتصاعد من احدى مداخن القصر .

غمرها شعور بالاسف . كيف وصل هذا القصر المهيب الى هذه الدرجة من الاهمال ؟ وهل يظن بليز لوفالييه ان ترضى كلير وهى من اعتادت حياة الرفاهية والعز ان تمضى فصل الشتاء فى هذه المنطقة وفى هذا القصر بالذات ؟

اطفأت اندريا اضواء السيارة حتى يبدد الظلام صورة واقعها الاليم .

استرسلت فى تأملاتها وهى جالسة داخل السيارة . هل كان يعلم ياترى بليز لوفالييه بان كلير كانت الوريثة الوحيدة لماكسويل ويستون ولذلك كان يصر على الزواج منها بأى ثمن؟ لعله كان يحسب ان الاموال التى ستؤول الى كلير فى يوم من الايام سوف ترد له المجد الذى غاب؟ اجتاحتها موجة من الغضب هزت كيانها . ستعرف كيف تتغلب على هذا الرجل الذى كان يهدد استقرار آل ويستون . ضغطت بيدها على بوق السيارة واخترق السكون صوت آلة التنبيه معلناً قدومها .

انفتح الباب الكبير وظهرت على العتبة امرأة تحمل مظلة سوداء كبيرة . تأملتها اندريا وهى تجتاز الساحة المفروشة باوراق الخريف وتسرع لملاقاتها . رفعت اندريا رأسها بشموخ وتناولت حقيبة يدها . تقدمت المرأة من باب السيارة وفتحته . وما ان وطئت قدما اندريا الارض ، حتى حمل الريح الوشاح الذى كانت تلف به عنقها وشعرها وكان عليها ان تتمسك بباب السيارة حتى لا تقع .

«اهلا بك فى سان جان دى روش».

قالت المرأة مرحبة وهى تحاول ان تقيها بمظلتها من المطر المتساقط بغزارة . شكرتها اندريا بصوت خافت وكانتا قد وصلتا قرب الباب عندما تذكرت اندريا فجأة حقيبتها فهتفت :

«نسيت حقيبة ملابسى».

وأرادت العودة الى السيارة لاحضارها لكن المرأة اوقفتها وأفهمتها ان شخصا اسمته غاستون سوف يحضرها فى وقت لاحق وان «السيد» هو الآن فى انتظارها .

كانت القاعة التى دخلتها اسوأ حالا من منظر البناء الخارجى . فى الصدر موقد كبير بدا خامداً لا نار فيه ولا دفء ينبعث منه . وفى الجهة المقابلة استرعى انتباه اندريا قنديل قديم فوق طاولة من خشب السنديان.

بدت الغرفة الصغيرة بجدارها المغطاة بالستائر من السقف الى الارض مريحة الى حد ما . وكان فى وسطها طاولة كبيرة عليها مفرش ناصع البياض بينما وقف بجوار الموقد رجل طويل القامة نحيل لدرجة الهزال تقريباً .

اختلطت مشاعرها . فالخصم الذى رسمت صورته فى رأسها رجل متقدم فى السن غليظ القامة وجلف بخلاف هذا الرجل الواقف امامها الذى بدا فى الثلاثين من عمره وعلى قدر لا يستهان به من الجاذبية.

ادار الرجل رأسه فكتمت اندريا شهقة كادت تفلت من بين شفتيها .

كان فوق خده الايسر جرح عميق امتد من اسفل العين الى منتصف الفك . لم تكن كلير قد ذكرت لها اى شئ عن ندبة فوق وجهه ولكن كيف لها ان تعلم بها ؟

هل كان هذا السبب الذى جعله يختار زواجاً بالمراسلة ؟ مسكين هو اذن . اوقفت نفسها عن الاسترسال فى هذا الشعور .

ظهرت على وجهة ابتسامة ساخرة وكأنه قرأ ما كان يدور فى رأسها من افكار وما يختلج فى نفسها من مشاعر. شعرت بعينيه الثاقبتين تخترقانها اختراقاً وتنفذان الى اعماقها. وبصوت عميق قال:

«وصلت اخيراً يا حبيبتى».

ولم تغب عن اندريا رنة الاستهزاء فى صوته .

٢- ليس تهديداً

«لا ينص الاتفاق الذى بيننا على أى شئ».

هز كتفيه وكأنه كان يجد الامر مسلياً وقال كمن يشرح درساً :

«هذا هو السلوك المتوقع ولا يجوز ان نتجاهل الاعراف السائدة . ولا أحد سوانا يعرف تفاصيل هذا الاتفاق الذى بيننا . ولا أخالك تريدين ان يتحول الى مادة يتندر بها اهالى القرية» .

«كلا بالطبع! ولكننى فوجئت ولم أكن مستعدة لمثل هذا الاستقبال».

«هل تسمحين بمعطفك ؟ ».

ولامست انامله المعطف فشعرت اندريا كأن سلكاً كهربيائياً مسها برغم حرصه الواضح على ان تأتى حركته تلك بعيده عن كل غرض .

أشار بيده الى مقعد قرب الموقد ودعاها لتجلس عليه ثم سألها :

«هل ترغبين بمشروب ساخن ام انك تفضلين الصعود الى غرفتك والاستراحة قليلا من عناء السفر حتى موعد العشاء ؟» .

«أفضل ان ابقى حيث ان حقائبى مازالت فى السيارة».

فأسرع يقول وهو يجذب حبلاً كان يتدلى بجانب الموقد :

«بالطبع. سأطلب الى غاستون ان يحضرها حالا».

فتح الباب فجأة ودخل منه رجل قصير القامة مستدير العينين اسمر الوجه. وقف بالباب برهة قبل ان يقول :

«نعم سيدى».

«آه ، غاستون».

استدار لوفالييه نحوه وخاطبه بالفرنسية.

وما أن انصرف غاستون حتى قال لها بليز محذراً :

«هو لا يتكلم الانجليزية ولكنك لن تعدمى طريقة للتفاهم معه. انه ابن شقيق مدام بريسون كلوتيلد ، اعتنت به منذ صغره. يقوم عادة بالاعمال الثقيلة واحيانا يساعد الرعاة على العناية بالقطعان وهو رائع جدا مع الحيوانات وخاصة مع الجياد وكأنه مطبوع بالفطرة على التعامل مع الخيول».

كانت اندريا تصغى الى كلامه برأس منحن وقلب منقبض. ولاشك انه كان يتوقع ان تبدى اهتماماً بهذه التفاصيل ، فستصبح سيدة القصر. ولكن وبرغم محاولاتها الصادقة ما لبث فكرها ان شرد وارتسمت صورة كلير امام عينيها. كيف كانت ستتصرف فى مثل هذا الظرف ؟ سألت اندريا :

«هل هو الخادم الوحيد فى القصر ؟».

«هو وكلوتيلد يقومان بكل اعمال المنزل ولكن لدينا عدد كبير من

www.rewity.com

العمال للزراعة ، لكن الأمر يختلف هناك فنحن جميعاً نعمل معاً ويخدم كل منا الآخر».

شعر انها لم تفهم كلامه فرأى ان يشرح لها الأمر وقال :

«انشأنا تعاونية وكل فرد فى سان جان دى روش يملك اسهماً فيها. انه نوع من العمل الجماعى الذى اعطى افضل النتائج».

«وما هو دورك انت فى هذه التعاونية ؟».

«انا مديرها العام».

أجابها وأسرع يضيف عندما رأى النظرة الساخرة التى رمته بها :

«أنا لست اقطاعياً ولو لم اكن املك من الخبرة ما يؤهلنى لادارة التعاونية لكنت وجدتنى الآن عاملا بسيطاً. لا أخفيك الأمر باننى تدربت على اعمال الادارة فى مزارع المارتينيك وسواها».

توقف قليلا وظهرت على وجهه ابتسامه ساخرة وأضاف :

«واذا كنت يا عزيزتى قد اتيت الى هنا وانت تظنين بانك ستقومين بدور سيدة القصر الفاتنة فانت مخطئة فى ظنك».

«انه امر لم يخطر ببالى».

وأخذت نفساً عميقاً وقالت :

«انك تدرك يا سيد لوفالييه مثلما ادرك انا تماماً ان هذا الزواج لا يمكن ان يتم».

«انك مخطئة يا آنسة وانا لا ادرك شيئاً من هذا».

«اذا كنت فى الماضى قد ابديت موافقتى على موضوع الزواج فلاننى كنت فى ظروف صعبة ولا اظنك ترغمنى على الوفاء بوعد الزواج سيتم فى القريب العاجل جداً. فقد تأجل بما فيه الكفاية». قطعته فى ظروف غير طبيعية. فوعد كهذا لا يجب ان يلزم احداً».

«انك واهمة يا آنستى اذا كنت تظنين بأننى سأتخلى عن الموضوع.

«ولكن لماذا ؟ من حقى ان اعرف السبب الذى يجعلك تصر على هذا الزواج».

سكب لنفسه مزيداً من القهوة وبجفاء قال :

«لقد اوصانى اخى بابنه قبل ان يموت ولكنه وضع شرطاً فى الوصية يعلق فيه حقى بالوصاية على زواجى. فلكى امارس حق الوصاية على ابن اخى المتوفى يجب ان اكون متزوجاً. هذا كل ما فى الامر».

«ولكن لماذا وضع اخوك هذا الشرط ، وقد كنت عازباً آنذاك ؟».

«كنت على عتبة الزواج عندما سجل اخى وصيته».

وبضحكة خالية من اى مرح تابع :

«فى يوم واحد فقط فقدت كل من أحببت فى هذه الحياة. كانت ساعات لا تنسى. لم يبق لى الا ابن اخى ولا اريد ان افقده ايضا».

«ولكن ربما انك قريبه الوحيد... ».

«كلا لست قريبة الوحيد. له خالة وهى مصره على استئناف حكم الوصية امام المحاكم. ولن اوفر لها الاسباب التى تأخذ بها. لن

استطيع محاربتها اذا لم اكن مستوفياً جميع شروط الوصية. لا اريد ان يصل الامر الى المحاكم ، فلست مستعداً لذلك خاصة ان التعاونية قد ابتعلت تقريباً كل اموالى».

«كم يبلغ من العمر ابن اخيك هذا ؟ ربما من الافضل له ان يبقى مع خالته التى اعتاد عليها و...».

شعرت بنظرته كحد السكين وباقتضاب اجابها :

«كلا ، لن يكون احسن حالا معها. بل العكس هو الصحيح انه وريثى الشرعى ومكانه هنا».

«واذا ما رزقت انت اطفالا فعندها».

وتوقفت فجأة وملأ الاحمرار وجهها لكنه ابتسم وقال :

«الا تخشين ان اطالبك بكلامك هذا فى يوم من الايام ؟».

ثم تابع وفى صوته رنة استهزاء وتهكم :

«ستغمضين عينيك عندئذ وتسرحين بفكرك الى بريطانيا كما يقول المثل عندكم او الى فرنسا فى مثل هذه الحالة».

غطت وجهها بيديها وبتعثر وتلعثم قالت :

«لم اكن اعنى...».

وتوقفت عندما رأت الابتسامة المتهكمة تعلو وجهه لكنه طمأنها قائلاً:

«لا تخافى. أنا اصدقك. وعلى اى حال لن اطلب منك تضحية بهذا الحجم. انا اعرف ان وجهى هذا كاف ليسبب كوابيس مزعجة لمعظم النساء».

عادت تحاوره علها تصل معه الى نتيجة مرضية وقالت :

«يبدو انك تألمت كثيراً فى حياتك. من منا لم يتألم ؟ لكنه ليس من المعدل ان تجعل الأخرين يدفعون الثمن. وهذا الزواج مكتوب له ان يفشل ، فأنت لا تعرفنى وانا لا اعرفك ولا يربطنا اى رابط».

كان صوتها مضطرباً وفى عينيها خوف ازعجه فقال لها بضيق :

«مما انت خائفة؟ اطمئنى يا آنسة فزواجنا سيبقى حبراً على ورق. كل ما ابغى هو ان يقتنع المحامون وعندئذ يصبح فيليب تحت وصايتى شرعياً وعملياً وبعدها يمكنك الذهاب حيث تشائين. ستكونين حرة تماماً».

«هذا استغلال لا يجوز».

«آه. وانت ؟ ألم يكن فى موقفك منى استغلال. لم تزعجك فكرة الاستغلال آنذاك. ماذا دعوتنى عندها ؟... «خشبة الخلاص «على ما اذكر. لقد كنت صريحة جداً ولم تشعرى بأى حرج وأنت تصفين حبك الفاشل وشعور اليأس الذى كان يحيطك. ليس من حقك الان ان تتذمرى اذا شعرت ان تلك الخشبة التى كانت للخلاص تحولت فى نظرك الى اغلال تقيد حريتك».

لم تعد اندريا تقوى على تحمل المزيد فوقفت وهى تزيح عن جبينها خصلة من الشعر وقالت بتبرم ونزق ملحوظين :

«ارجو المعذرة فأنا اشعر ببعض التعب وأود ان استريح قليلاً».

«بكل تأكيد. سأطلب الى كلوتيلد ان ترافقك الى غرفتك».

ثم قام من مكانه واقترب منها ورماها بنظرة طويلة قبل ان يقول :

«ربما بدت لك الامور مختلفة غداً. والآن اسمحى لى ان ارجو لك نوماً هانئاً وليلة مريحة».

لم تجب اندريا بشئ واكتفت بهزة من رأسها. قطع عليها صوت الباب تفكيرها ووجدت فى مدام بريسون عندما ظهرت خشبة خلاص فعلية.

سرها ان تجد الغرفة المخصصة لها فى الطرف المقابل وتفصلها عن الغرفة الرئيسية مسافة ليست قصيرة. فتحت مدام بريسون الباب ووقفت جانباً مفسحة الطريق لاندريا. كان جو الغرفة هادئاً ومريحاً. فى احدى زواياها موقد نار مشتعلة ، وكان الاثاث من الطراز القديم مريحاً للعين خاصة السرير الكبير المصنوع من خشب السنديان. ربتت اندريا على الفراش بيدها وسرها جدا ان تجده وثيراً.

لم تدر سبباً لارتجافها المفاجئ. واستحوذت على تفكيرها فكرة واحدة:

السرعة. يجب ان تخرج من هذا القصر باقصى سرعة قبل ان تتطور الامور على غير ما تشتهى.

استيقظت من نومها مذعورة. كان الماء يتساقط عليها تلمست بيديها علبه الكبريت فى الظلام وعندما وجدتها اضاءت المصباح بالقرب من سريرها. ويا لهول ما رأت ! كان المطر ينهمر بغزارة فى الخارج والداخل معاً رفعت رأسها الى أسقف فرأت بقعة كبيرة من الرطوبة حيث قطرات الماء تجد طريقها من شقوق السقف المتصدع.

بعد جهد وعناء استطاعت ان تزيح السرير الضخم قليلا ووجدت وعاء وضعته على الارض لالتقاط قطرات الماء المنهمرة.

كانت نار الموقد قد خبت اثناء الليل بينما الجو فى الخارج عاصفاً.

وكانت اندريا تسمع صرير النوافذ. شعرت بالبرد يخترق عظامها فعادت الى السرير لعلها تجد فيه بعض الدفء.

عبثاً حاولت ان تبعد عن خيالها صورة ذلك الوجة ذى الندبة اغمضت عينيها تطالعها صورة بليز لوفالييه بنظرته الثاقبة وخطوط وجهه القوية. قالت لنفسها مئة مرة انه لا سلطة لهذا الرجل عليها ، فلما اذن تخشاه ؟ وهى سيدة نفسها ومالكة لحريتها. فلماذا تخشى غضبه ؟ وهى على اى حال لن تكون هناك عندما يكتشف الخدعة التى دبرها ويعرف الحقيقة. برغم كل هذا الايحاء الذاتى ظل القلق مسيطراً عليها والهواجس تتقاذفها.

عبثاً حاولت اندريا ان تبعد تلك الافكار عن خيالها وصل بها الامر الى ان ترسم فى رأسها صورة لمن كانت خطيبته. تخيلتها فتاة شقراء صغيرة الجسم دقيقة التكوين وذات وجه مثير ومميز ، تماماً مثل ابنة عمها كلير. حتى اخلاقها وتصرفاتها تصورها مثل اخلاق وتصرفات كلير.

وباحساسها المرهف ادركت اندريا ان الحرج فى وجهة يهون نسبة الى الجراح قلبه ونفسه. كانت على يقين ان وراء ذلك القناع من الجفاء والعدوانية يقبع انسان قادر على الحب والعطاء وكانت له آمال وأحلام وكان يريد ان ينشى عائلة ويغدق على من حوله الحنان والعطف. والآن عليه ان يقنع بعلاقة سطحية مع امرأة بالكاد يعرفها وان يعلق كل آماله على فتى ليس ابنه ولا من صلبه.

عندما صعت اندريا كانت الدموع تبلل وجهها ونور الشمس الذهبى يغمر الغرفة ويضفى عليها جمالا ورونقاً.

مسحت اندريا دموعها عندما سمعت وقع اقدام مدام بريسون.

وسرعان ما انفتح الباب وظهرت كلوتيلد تحمل وعاء فيه ماء ساخن وعندما وقع نظرها على قطرات الماء المنسابة من السقف ، راحت تتكلم بسرعة وقالت كلاماً كثيراً فهمت منه اندريا ان جميع غرف القصر كانت على هذه الدرجة من الخراب باستثناء الغرفة التى كان يشغلها بليز. وضعت اناء الماء من يدها وراحت تحوم حول اندريا. ومما قالته انها كانت ستكلف غاستون ان يصعد الى سطوع القرميد ويصلح ما يمكن اصلاحه.

كان بليز عندما دخلت اندريا غرفة الطعام ، جالساً يراجع بعض الاوراق امامه. رفع بصره اليها وقال :

«ارجو ان تكون الآنسة قد امضت ليلة هادئة».

«ليس تماماً» اجابته وهى تأخذ مكانها الى المائدة وتتناول قطعة من الكعك:

«وهل لى ان اسألك لماذا ؟».

«لقد كان الماء يسقط من السقف فوق رأسى».

قطب جبينه وقال :

«سأكلم كلوتيلد بالأمر. كان يجب ان تختار لك غرفة غيرها».

«الذنب ليس ذنبها».

أجابته اندريا وهى تسكب بعض القهوة فى فنجانها ثم تابعت :

«يبدو ان جميع الغرف هكذا».

«لكن غرفتى لا يسقط الماء من سطحها !».

«بالطبع !».

اجابته وهى ترسل له ابتسامه عذبة. اخذ بضع رشفات من فنجان القهوة قبل ان يقول بصوت متأمل :

«وما هو الحل فى نظرك ؟ الحل الطبيعى لهذه المشكلة يطرح نفسه بنفسه».

اصطبغ وجهها بلون احمر قان وحاولت جاهدة ان تحتفظ بتلك الابتسامة العذبة وبمرونة لم تعهدها فى نفسها. قالت :

«يوجد حل اخر. ما عليك الا تكليف احدهم باصلاح السقف».

هز كتفيه وقال :

«غاستون يقوم بكل ما يستطيع».

«ربما كان هذا صحيحاً».

قال وهو يتأملها بحيرة واضحة وأضاف :

«لقد اقتنعت اذن بفكرة الزواج».

«وهل لى خيار غير التسليم ؟».

ثم تابعت :

«سبق ان شرحت لى بشكل واف ما يمكن ان يحل بى وبأسرتى ان انا نكثت بالوعد. وهذا ما اود ان اتجنبه».

«هذا عين العقل. لا يمكن ان تتصورى ما كان سيلحق بك وبعائلتك

من ضرر اذا لم تفى بالوعد».

اعادت اندريا فنجان القهوة الى المائدة وبتلعثم سألته :

«ماذا تعنى ؟ ».

«الا تدرين ما أعنى ؟».

سألها وهو يرسل اليها نظرات حادة ثم تابع :

«لقد أوضحت لك الامر. والدك رجل مرموق فى أوساطه والتوعك الذى اصابه اقلق العديد من اصدقائه. لقد سمعت ذلك فى الاوساط التى اعتدت ارتيادها. انك تدركين بالطبع بانه كان على ان اقوم ببعض التحريات حول المحيطين بك».

هذا بالضبط ما كانت تخشاه. ان تقوم بتحريات حول آل ويستون ويكشف الحقيقة. وقفز قلبها فى صدرها بجنون.

وبعد لحظة صمت قالت :

«بالطبع. ولولا هذا ما كنت لتقدر على تهديدى بهذا الشكل. فصحة والدى فى الميزان».

«كل ما فى الامر اننى شرحت لك ما قد يترتب على رجوعك عن وعدك من عواقب قد تكون فى غير صالح عائلتك. أنا لم أهددك وتركت لك حرية القرار».

«عسى ان يستحق الانتصار الذى تود احرازه هذه الخسة التى اعتمدت عليها لتحقيقه».

«ما علينا الا ان ننتظر لنرى».

اجابها وهو يرشف آخر قطرة فى فنجان القهوة ثم وقف ودعاها لمرافقته فى جولة تفقدية على ظهور الخيل وقال :

«يسعدنى ان ترافقينى فى هذه الجولة. فان لك كما سبق ان ذكرت، حقاً مكتسباً فى القصر وفى الارض. وربما كان من المناسب ان تتعرفى الى التغييرات التى نحن فى صددها».

غاص قلبها فى صدرها عندما رأت غاستون يسوق المهرة التى اختارها لها بليز. كانت مختلفة تماماً عن بنلوب الفرس العجوز التى اعتادت اندريا ركوبها فى لندن اثناء دروس الفروسية. هذه الغبراء تعدو وبحرى وتقذف برأسها يميناً وشمالا وتصهل.

«يا الهى».

قالت اندريا فى نفسها وامسكت قلبها بيدها.

«انها بحاجة الى الرياضة».

فتشت اندريا بعينيها على غاستون ليساعدها فى امتطاء المهرة ولكنه كان قد اختفى داخل الاسطبل.

بدت دلفين صعبة المراس ومشاكسة وتذكرت اندريا كلام كلير عن الجياد من ان لها حاسة خاصة وهى تخضع من يمتطيها لامتحان لتعرف من يسيطر على الاخر ، الفرس ام الفارس ؟ وبدا واضحا ان دلفين مدركة تماماً انه لم تكن اندريا قادرة على السيطرة عليها لذلك أخذت حريتها تماماً وما ان اصبحت خارج ساحة القصر حتى خرجت عن الطريق العام وراحت تأكل العشب عن جانبى الطريق. وعندما شدت اندريا اللجام قليلا حرنت ولم تعد تتقدّم. وكانت الطامة الكبرى

عندما مر طائر فوق رأسها. صهلت بسخط واعتراض وانتصبت على قائمتيها الخلفيتين وكادت ان تقذف اندريا عن ظهرها. وبدل ان تشكر ربها لوجود بليز بالقرب منها فى تلك اللحظة بالذات لعنت خظها وهى تشعر بحرج عظيم. أمسك بليز باللجام وجذبه بطريقة جعلت دلفين تهدأ فى الحال.

«ما كان يجب ان ادعوك الى الركوب هذا النهار. فأنت مازلت متعبة بعد عناء السفر ولم تنالى بعد قسطاً كافياً من الراحة خاصة انك امضيت ليلة مؤرقة».

«تبا لى» قالت اندريا فى سرها ولماذا لم تخطر هذه الحجة على بالى؟ وبصوت جاف أجابته :

«ربما كان هذا صحيحاً».

كان عليها ان تتمالك نفسها وان تدعه يراها يائسة وضعيفة. أخذت اللجام بين يديها وتابعت طريقها.

كان الجو من حولها متألفاً والطبيعة فى اجمل حلة وبدت اوراق الخريف التى تشبثت بالاغصان لا تبارحها وكأنها تتحدى شتاء اصبح على الابواب. كان كل شئ حولها يدعوها الى الاستمتاع بيوم جميل وكان من الصعب جداً ان لا تستجيب.

كانت اندريا فى نشوة عارمة عندما اوصلتها دلفين أخيراً الى ارض فسيحة مغطاة بالعشب الاخضر. نسيت خوفها تماماً عندما بدأت تسرع قليلاً. ثم تجرى مطلقو لساقيها العنان وكأنها فى ميدان للسباق. لم تعد دلفين فى نظرها الوحش الذى اراد تدميرها ، بل تحولت الى

مخلوق جميل اراد فقط وبطريقته المندفعة ، ان يشركها بما كان يجيش فى نفسه من فرح وسرور وحب للحياة.

توقفاً اخيراً فى مكان مشرف يطل على القرية. رأت اندريا البيوت كلها وبدا القصر فى وسطها مهجوراً وكئيباً. اختلست نظرة الى رفيقها فهالتها مسحة الحزن التى كست وجهه والمرارة فى نظراته.

وقف بقربها ساكناً شارد الفكر وكأنه نسى وجودها تماماً ثم جاءها صوته فجأة يقول :

«هيا»

لم يفارق العبوس وجه بليز ولازمه مزاجه القائم طوال الوقت الذى أمضياه فى تفقد الكروم ، عكس اندريا التى ابدت اهتماما صادقاً بكل ما رأته. ولم تحظ منه بأكثر من اجابات مقتضبة. ضايقها صمته وأزعاجها ان يتجاهل وجودها بهذا الشكل الصارخ فقالت :

«كانت فكرتك انت ان نقوم بهذه الجولة وعليك فى المستقبل ان تحسن اسلوبك فى التعليم اذا كنت تريدنى ان احفظ شيئاً».

رماها بنظرة جعلت الدم يقفز فى عروقها ولم يجب بل ادار حصانه باتجاه القصر وانطلق وهى فى اثره.

«وهكذا نأتى الى نهاية الدرس الاول».

قالت اندريا بتهكم وكانا قد وصلا اخيراً الى ساحة القصر الخارجية.

جاءها الجواب هذه المرة وكان صوته جارحا وهو يقول :

«قد يكون الامر بالنسبة الى فتاه مثلك مجرد مزحة ولكنه لى

وللعديد من الناس مسألة حياة او موت. فانت ترين الامر بمنظار الفتاة الانجليزية سليلة العائلة النبيلة التى تنعم بالثراء والجاه. هل تعلمين كم عائلة فى فرنسا يقبع العجائز فيها وحدهم فى بيوتهم لأن اولادهم نزحوا الى المدينة سعياً وراء الرزق ؟ هذا الامر لا يهمك ولكنه يهمنى انا كما يهمنى الا ارى هذا البيت الذى تملكه عائلتى منذ مئات السنين ، ينهار من حولى. هل تعتقدين اننى كنت اسمع بهذا الاهمال لولا ظروف قاهرة فوق طاقتى؟ اسمعى جيداً يا آنسة ، ان ما ترينه من دمار وخراب هو نتيجة البغض والكراهية والضغينة وحب الانتقام».

«بغض من ولمن ؟».

سألته اندريا مستفسرة :

«بغض والدى يا آنسة. كان اخى الاصغر هو المفضل لديه ولم يسامحنى ابداً كونى ولده البكر ووريثه الشرعى. لم يكن يرضيه اى عمل اقوم به فلم يبق امامى الا ان ارحل عنه. كان بامكانه ان يمنع هذا الانهيار الذى اصاب القصر ولكنه لم يشأ. لم يكن مهتماً حتى لو تحول القصر الى ركام قبل ان يؤول الى بالوراثة. احتفظ والدى بكل قرش لبيل ريفيير وهى المزرعة التى كانت تمتلكها العائلة والتى خص بها أخى جان بول».

«وهل كانت المزرعة بادارة اخيك ؟».

«نعم. كانت حصته من الميراث. والله وحده يعلم اننى لم احسده ابداً عليها. وحدث ان صادفته صعوبات كثيرة وكان من سوء طالعه ان عرفت المزرعة سنوات قحط متتالية وتعرضت المواسم الى آفات عديدة

أتلفت المحاصيل وضربت الزرع. وفى النهاية اصدر والدى امره الى بأن أذهب الى المزرعة وأصلح ما يمكن اصلاحه. وعندما وصلت كان جان بول على حافة الافلاس. لانه راهن بكل ما يملك عله يعوض الخسارة التى تعرض لها. وأدركت اننا كنا بحاجة الى معجزة لتنقذنا مما كنا فيه».

توقف فجأة وكأنه شعر بما خالجها من مشاعر وأحاسيس وهى تستمع اليه :

«لا ريب ان حديثى عن النزاعات التافهة فى عائلتى يبعث فى نفسك الملل. ولقد مضى على وفاة والدى رحمه الله سنتان وجان بول وزوجته هما الآخران فى دنيا الخلود الآن. لم يبق غيرى. وعلى ان ارفع الانقاض وابنى حياة جديدة لى ولفيليب».

كيف كشف لها بليز هذه المشاعر كلها ؟ وكيف سمح لها بأن ترى هذا الجانب من شخصيته وتطلع على ما كان يعانى منه ويتألم لأجله ؟ بللت شفتيها الجافتين قبل ان تسأله :

«وماذا حل بالمزرعة بيل ريفير ؟».

«اتت عليها النيران. شب فيها حريق التهم البيت والمزرعة وكل شئ وبقيت الارض التى وضعت الدولة يدها عليها فيما بعد وأصبحت تدفع لنا قيمة الايجار فقط».

اختلست نظرة الى وجه بليز ورأت الندبة فوق خده أشد بروزاً من اى وقت سبق.

كان غاستون بانتظارها عندما وصلا وبدت المسافة بين ظهر الفرس

والارض شاسعة جداً فى نظر اندريا التى كانت عضلاتها التشنجة تكاد تصرخ من شدة التعب. شعرت بتيبس فى ظهرها وخشيت ان لا تحملها ساقاها ان هى ترجلت. وجاء بليز كالعادة لنجدتها فى الوقت المناسب وقال وهى يساعدها للنزول عن ظهر الفرس:

«اسمحى لى».

ولكن ما ان لامست قدماها الارض حتى تراجعت بضع خطوات الى الوراء والحمرة تكسو وجهها. ومن شدة ارتباكها تعثرت قدمها وكادت تقع لولا ان أسندها وهو يقول :

«انتبهى».

ثم وبصوت متباعد انما مجامل أضاف :

«سأراك على العشاء فى وقت لاحق هذا المساء».

حياها باشارة من رأسه وأسرع بالانصراف.

ظلت واقفة تراقبة وهو يبتعد. وأزعجها كثيراً هذا التمرد المفاجئ فى مشاعرها. اننى اكرهه ! قالت تعنف نفسها ، ولن أدعه يسيطر على مشاعرى مرة اخرى بعد اليوم.

٣- انكشاف السر

لم تكن اندريا قادرة على انكار الحقيقة وهى أن مشوارها فى الهواء الطلق ذاك الصباح افادها كثيراً وفتح شهيتها للطعام.

وعدت نفسها بانها ستتصرف الى بعض الامور الخاصة بعد الغداء، كان عليها مثلاً ان تكتب رسالة لكلير ولكن ما عساها تقول ؟

وقالت فى نفسها. بما ان بليز لوفالييه يقوم بإدارة التعاونية فلابد أن يكون له مكتب خاص، وربما كان هذا المكتب فى القصر. انه المكان الأنسب للاحتفاظ بالرسائل والأوراق الخاصة وعليه فانها ستبدأ جولتها التفتيشية فى هذا المكتب بالذات. لم ترتح للفكرة ابداً وشعرت بدناءتها.

كان عليها ان تذكر نفسها بالاساليب الملتوية التى لجأ اليها بليز لارغام ابنة عمها على الزواج منه.

كان من العبث تجاهل الشعور الذى أثاره فى نفسها وهى فى رفقته ذاك الصباح. كان شعورها نحوه مزيجاً من الانجذاب والانبهار. فهى قد امضت طفولة سعيدة فى اسرة تشعر بالاستقرار، ولذلك صعب عليها ان تتصور كيف تتعرض عائلة مثل عائلة بليز لكل هذه المرارة وان

تسود علاقات افرادها كل هذه الضغينة.

تناولت بعد ذلك طعام الغداء الذى تألف من حساء الخضار والجبنة البلدية والفاكهة الطازجة من بساتين القصر. وعندما جاءت مدام بريسون لتأخذ الاطباق كانت اندريا ترتشف اخر ما فى فنجانها من القهوة. قالت لها اندريا :

«دعينى اساعدك انك تقومين باعمال كثيرة».

وبرغم احتجاج مدام بريسون نهضت اندريا واخذت تصف الاطباق على صينية حملتها الى المطبخ مبررة عملها هذا بالقول انها اذا كانت فعلا ستصبح سيدة هذا القصر يتوجب عليها القيام ببعض الواجبات المنزلية.

وعلى اى حال لم تكن اندريا تتحمل رؤية غيرها يقوم بخدمتها بدون ان تساهم فى العمل، فنزعتها الى الاعتماد على نفسها ما كانت لتسمح لها بغير ذلك.

لم تتبرم مدام بريسون من وجود اندريا فى المطبخ بل بدت متشوقة لاطلاعها على كل شئ. ارادت ان تريها محتويات الخزائن من الاوانى والاطعمة المختلفة. ولم تتردد بالبوح لها بأن الشئ الوحيد الذى كان يزعجها هو عدم تجهيز القصر بالكهرباء. وشرحت لها ان تلك كانت مشيئة السيد الكبير اى والد يليز. لكن عندما ارادت اندريا ان تطرح بعض الاسئلة تحفظت مدام بريسون ولم تعد تتكلم بصراحة.

ارتبكت مدام بريسون ولم تدر بما تجيب اندريا عندما قالت لها انه كان بودها ان تقوم بجولة استكشافية فى القصر ولكن اندريا لم تكن بحاجة الى من يرافقها. واجتاح اندريا شعور بالذنب وهى تتناول رزمة

المفاتيح من مدام بريسون التى وثقت بها.

مضت ساعتان من البحث العقيم شعرت بعدها اندريا بخيبة امل عارمة. فلقد تناول بحثها كل شبر من الجزء المأهول فى القصر. فتشت فى غرف كفنها الغبار واجتازت اخرى على رؤوس اصابع قدميها لئلا تكسر صمتاً مخيماً كصمت القبور وعبرت اروقة علقت على جدارنها صور الجدود فى عائلة لوفاليه، خيل لاندريا ان اصحابها كانوا ينظرون اليها بتعال احتجاجاً على تطفلها عليهم.

صعدت سلماً وهبطت آخرى، لدرجة انها كادت تسمع صوت عضلاتها تطلب منها الرحمة. بقت غرفة بليز لوفاليه وحدها لم يطلها البحث. كيف كانت ستبرر وجودها لو ان احداً رآها فى الغرفة؟ اما تجوالها فى انحاء القصر فيمكن تفسيرة فى سهولة.

شعرت بألم فى رأسها وبطعم الغبار فى فمها فارتدت معطفها استعداداً للخروج. كانت بحاجة ماسة الى تنشق الهواء النقى. تساءلت فى نفسها اذا لم يكن من الافضل لها ان تقفل عائدة من حيث اتت قبل ان تتورط اكثر، وما عليها الا ان تجد طريقة ما لدرء الأذى عن كلير ريثما يحين موعد زواجها، وهو على اى حال بات وشيكاً. سوف تختفى بعد ذلك الى الأبد.

كانت كمن يبحث عن ابره فى قش. لاشك بأن كلير كانت مجنونة ولكن هل هى اقل جنوناً منها عندما وافقت على هذه الخطة البلهاء ؟ لو ان بليز كان هذا الاحمق المتغطرس المغرور الذى رسمت صورته فى ذهنها لكان من السهل عليها ان تجد متعة فى خداعه والضحك عليه والعبث بعواطفه. ولكن الأمر مع بليز مختلف وهو على اى حال مازال

سيد الموقف ومازالت جميع الاوراق فى يديه.

عندما خرجت من الباب الرئيسى، طالعتها شمس اوشكت على المغيب. اعترتها قشعريرة فدست يديها فى جيوبها. توقفت فى وسط الساحة ونظرت حولها. كانت الكآبة تملأ نفسها وبحركة لا شعورية اقتلعت بعض الاعشاب والحشائش وقذفت بها باتجاه البناء القائم قرب بوابة القصر.

فارتطمت باحدى النوافذ قبل ان تنزلق وتستقر على حافتها. وما هى الا ثوان حتى سمعت اندريا صوت نافذة تفتح ويطل منه وجه. انه الوجه الذى كانت قد رأته يوم وصولها. رفعت يدها الى فمها فى ضيق ولكن بعد فوات الأوان.

كان الوجه الذى اطل من النافذة متلحياً ودوداً وفوق انفه نظارتان بدون اطار. ارسل اليها نظرة استهجان وألم وقال بالفرنسية ولكن بلكنة انجليزية:

«معذرة يا آنسة، اى خدمة ؟».

«أنا آسفة. لم أكن أعلم أن أحداً يقيم هنا.»

«انت ايضا انجليزية».

قالها باستهجان وغبطة، وحلت ابتسامة مشرقة مكان النظرة المندهشة المتألمة. ثم تابع :

«يا لها من صدفة. لابد انك سائحة ضللت الطريق. فهذا المكان لا يقصده السواح».

«كلا».

«هل ترغبين بكوب من الشاى ؟».

دفعها الفضول الى قبول الدعوة وتوجهت صوب البيت.

رأت اندريا مضيفتها عن كثب عندما فتح الباب لاستقبالها، ذلك الباب الكبير المزدان بمسامير ذات رؤوس ضخمة ونافرة. بدا عن قرب، اصغر سناً مما قدرت. ربما كان اكبر منها بسنة او سنتين على الاكثر. كان مربوع القامة يرتدى ثياباً عرفت اندريا حالاً انها مستعملة سابقاً. فسرواله الجينز وسترته وحذاؤه، كلها كانت تنطق بماض سحيق.

«آلان وودهاوس»

قال مقدماً نفسه ومد يده مصافحاً ووجدت اندريا يده ثابتة وقوية واعجبها ذلك.

«اندريا ويستون».

«يا للغرابة اسمانا يبدآن بالحرف نفسه. يبدو ان هذا لقاء رتبه القدر. تفضلى بالدخول واحترسى وانت تصعدين الدرج. من هنا يا آنسة تفضلى هذه غرفة الجلوس وانا عملياً اقيم فيها ولذلك ترينها فى فوضى».

كلمة «فوضى» لا تكفى، قالت اندريا فى نفسها ربما عبارة «فوضى عارمة» قد تفى بالغرض.

راح آلان وودهاوس يفتش بين الاعراض على الطاولة وهو يقول :

«لقد قمت بغسل بعض الاوانى امس او لعله قبل ذلك وليس فى

هذا المكان ماء. على ان احمله من الاسطبل. وعلى اى حال، ليس لى ان اتذمر فهو لا يتقاضى منى اى اجر لقاء اقامتى. على ان اتكيف مع البيئة وان لم استطع فمعناه اننى غير اهل للتقدم فى هذه الحياة».

«هل انت كاتب ؟».

«ربما اصبحت كاتباً ذات يوم اما الآن فاننى اقوم ببحث من اجل كتابة اطروحتى وهى تدور حول حياة فيرسنجيتوركس. انه كما تعلمين من هذه المنطقة. لاشك انك تشعرين بالعطش ولكنى اخشى انه لايوجد لدى غير الحليب المجفف مع الشاى».

جلس الان على السرير الصغير قبالتها ونظر اليها بسرور ظاهر وقال:

«انه امر رائع ان التقى بشخص يتكلم الانكليزية وانا لا اتقن الفرنسية ومع ان السيد لوفالييه يتكلم الانجليزية بطلاقة لكنه يحب المخالطة ولذلك لا تسنح الفرص لتبادل الحديث معه الا نادراً».

اجابته اندريا بتحفظ جعله يجفل ويسرع بالقول :

«يا الهى لقد اسأت التعبير فاعذرينى. وعلى فكرة هل انت من وصل بالسيارة ليلة امس؟ وهل تقيمين فى القصر؟ لابد انك احدى صديقاته».

حدقت اندريا فى الارض قبل ان تجيبه !

«ذلك صحيح الى حد ما».

خيم صمت طويل وعندما رفعت اندريا عينيها اخيراً رأت الحمرة تكسو وجه آلان واسرع يقول :

«لا اريد ان ابدو متطفلاً».

«الواقع اننى هنا فى عمل وعلى ان افاوض السيد لوفالييه بشأن مسألة مشتركة».

انفرجت اساريره كأنه سمع خبراً افرحه فقال :

«الحقيقة انه لايبدو عليك انك من النوع الذى... ماذا اقول... لسانى يخوننى مرة اخرى. ما اريد قوله هو انه يحتفظ بعلاقات نسائية عديدة».

رأيت اندريا ان تغير مجرى الحديث فسألته عن الاطروحة التى كان يحضرها وعن المعلومات التى جمعها اثناء اقامته فى هذا الجزء من فرنسا.

وعلمت منه انه مضى على وجوده فى سان جان دى روش ستة اسابيع ويتوقع البقاء شهراً اخر. وقال :

«ربما استطعنا تناول العشاء معاً انا لست معدماً تماماً كما قد يتراءى لك، فلى بعض المال. وهناك مكان فى كرودون والتنقل ليس مشكلة بوجود سيارتك».

«لم تعد السيارة معى».

«وماذا حل بالسيارة ؟».

«كانت سيارة مستأجرة. ربما عادت الآن الى كلير مون فران».

«انه امر مؤسف. هناك جان - لوك غابرييه. ولديه دراجة ناريه. ربما اعارنا اياها. لا تخشى، سنتدبر الأمر».

«هذا رائع».

قالت اندريا وحاولت ان تتصور بليز لوفالييه عندما يتناهى الى سمعه ان زوجة المستقبل كانت تجوب المنطقة على المقعد الخلفى من دراجة نارية مستعارة. امر واحد كانت واثقة منه : لن تكون الدراجة اكثر ازعاجاً بالنسبة اليها من دلفين.

نظرت الى ساعتها وطار صوابها وصرخت :

«يا للسماء. على ان اذهب، ام اشعر بالوقت يمر».

«سأتصل بك فى القريب».

قال لها وهو يودعها حتى الباب. وبعد ان قطعت اكثر من نصف الساحة سمعت صوته يقول :

الى اللقاء يا اندريا».

«رياه»!

صرخت بجزع وعادت اليه مسرعة. لم يكن قد اغلق الباب بعد عندما وصلت اندريا فنظر اليها باستغراب وقال :

«هل نسيت شيئاً ؟».

«نعم».

اجابته وتابعت :

«نسيت ان اطلب منك ان تنادينى باسم «كلير» ان لم يكن عندك من مانع».

حدق فيها وكأنه خشى ان تكون فقدت عقلها. ولا عجب، قالت اندريا فى نفسها. وكان عليها ان تجد تبريراً معقولاً فتابعت بتلعثم :

«انا لا استعمل اسمى الحقيقى فى العمل. وهذا يعود لاسباب مهنية بحتة ولا يعرفنى السيد لوفالييه الا باسم «كلير» ومناداتى باسم غيره قد يسبب تشويشاً انا بغنى عنه. تكفينى مشاكل اللغة».

لاحظت اندريا بارتياح ان نظرة الحيرة فارقت وجهه. فمشاكل الاتصال بلغة غير الانجليزية كانت بالنسبة اليه امراً يستطيع ادراكه والتعاطف معه.

«سوف اتذكر ذلك».

قال وهو يرميها بنظرة متفحصة ثم اضاف :

«لا يروقنى هذا التغيير فى الاسم. فاسم «كلير» لا يناسبك ابداً».

اسرعت اندريا بالانصراف وراودتها فكرة وهى تجتاز الساحة. لو كانت كلير مكانها لوجدت الموقف مثيراً وهى التى تهوى التمثيل واجواء المغامرات والقصص الغريبة.

كانت «مدام بريسون تذرع القاعة ذهاباً واياباً عندما وصلت اندريا اخيراً. وحالما وقعت عيناها عليها قالت بقلق :

«اين كنت يا آنسة. سأل عنك السيدة عدة مرات».

«يا الهى».

قالت اندريا باستهتار وتابعت بتهكم :

«وهل سأعدم رمياً بالرصاص ؟».

«ولكن لابد انك وجدت الزيارة لبيت الحارس اكثر اثارة».

«كانت زيارة ممتعة جداً. اشكر لك اهتمامك، ولكننى اتساءل لماذا لم تخبرنى بوجود نزيل فيه».

«ربما لاننى واثق من مقدرتك على استكشاف هذه الامور بنفسك».

«وما زلت اجهل سبب عدم ذكر هذا الامر امامى وانت تعلم بدون شك ان وجود احد ابناء وطنى على قاب قوسين منى امر يثير اهتمامى».

«ربما كان هذا هو السبب».

«يا للوقاحة !».

صرخت، وباستنكار سألته :

«وماذا تعنى بالضبط يا سيدى ؟».

«اعنى يا جميلتى ان سلوك مدام لوفالييه فى المستقبل يجب ان يكون فوق الشبهات بصرف النظر عن حماقات الماضى».

صمتت برهة قبل ان تجيبه بصوت مضطرب :

«هذه اهانة !».

«لماذا ؟ هل لأننى اشير الى امور انت نفسك لم تبقها سراً ؟ اكملى عشاءك الآن فانك نحيلة جداً».

«يؤسفنى انى لا اروقك يا سيدى وانت من اعتاد اجمل النساء !».

«لا تدعى هذا يزعجك يا عزيزتى».

مرت فترة من الصمت قبل ان يواجه اى كلام، ثم سألها :

«وكيف وجدت المؤرخ الشاب ؟».

«انه يبدو ملماً بالموضوع الذى اختاره».

اجابته وهى تجبر نفسها على ان تحذوه حذوه وتتكلم بهدوء ثم تابعت:

«اخشى اننى لم استطع مجاراته فى الحديث».

لم تحس اندريا بطعم العشاء الفاخر الذى قدمته لهما مدام بريسون وعندما اقبلت هذه لتأخذ الاطباق كانت فكرة الهرب مستحوذة تماماً على ذهنها وكانت قد وصلت الى الباب عندما اوقفها صوت بليز يسألها :

«الى اين انت ذاهبة ؟».

«الى غرفتى».

اجابته وهى ترسل اليه من عينيها العسليتين نظرة شفافة ثم استطردت:

«اننى اشعر بالتعب».

«اجلسى من فضلك هناك بعض الامور اود ان احدثك بشأنها».

«ما الذى تريد ان تقوله لى يا سيدى ؟».

«اود قبل كل شئ ان اعطيك هذا».

وناولها علبة صغيرة من المخمل اخذتها منه بشكل آلى وفتحتها. شهقت عندما رأت الخاتم فى داخلها الذى كان يستقر على قاعدة غلفت بقماش الساتان. لم تكن قد رأت لذلك الخاتم مثيلاً. كان الحجر الكبير فى وسطه من الياقوت الاحمر النادر وحوله احجار من الماس على شكل زهرة غريبة وكان يشع ببريق يخلب الابصار.

«ما هذا ؟».

«انه خاتم الخطوبة الخاص بعائلة لوفاليه».

اجابها بلهفة من نفذ صبره وبنبرة آمره اضاف :

«ضعيه فى اصابعك».

«كلا»!

صرخت وهى تغلق العلبة بانامل مرتعشة.

ضاقت عيناه بشكل ينذر بالخطر واجابها :

«لطفاً اطيعينى».

«لا استطيع ليس من حقك ان تطلب هذا».

«ما هو من حقى وما هو ليس من حقى، موضوع سنبحثه فى وقت اكثر ملاءمة. والآن ضعى الخاتم حول اصابعك».

«من المفروض ان يكون هذا الخاتم عربون حب وليس بيننا اى حب!».

كتم فى نفسه لعنة كادت تفلت من بين شفتيه وقال :

«حسناً، اذا كان ذلك ما تريدين فلا بأس».

كان يقف قرب الموقد مسنداً ذراعه على حافته فى الوضع نفسه كما رأته عندما التقيا لأول مرة. كان شارد الفكر وعلى وجهه ارتسم حزن عميق. عندما رآها تنظر اليه قال بعصبية :

«آمل ان يكون هذا قد حقق بعض توقعاتك».

«لم اكن اتوقع شيئاً».

اجابته بصدق واحنت رأسها بأسى وهى تقول :

«ولكنك بالتأكيد تستطيع ان تحسبه انتصاراً اخر ايها السيد. والآن هل اصبح بامكانى الانصراف ؟».

«دقيقة واحدة من فضلك... سنعقد زواجنا بعد غد».

شعرت اندريا بقواها تخور واعترتها رجفة شديدة وبصوت بدا غريباً حتى على اذنيها سألته محاولة كسب الوقت.

«ولم العجلة ؟ هل يجب ان يتم الزواج بهذه السرعة؟».

«نعم، لقد ابلغنى المحامون ان سيمون عازمة على الطعن بوصية جان بول، ولهذا السبب على ان اكون مستعداً لها».

«ولكن هناك بعض الشكليات القانونية. الا يلزمك بعض الوقت لاتمامها ؟».

«يبدو ان ذاكرتك ضعيفة يا آنسة. هل نسيت اننى اتممت جميع الترتيبات منذ اسابيع ؟».

حبست اندريا أنه كادت تفلت من شفتيها. يبدو ان كلير لم تكن صريحة معها واخفت عليها مدى تورطها. ولكن لسوء الحظ ادركت اندريا ذلك متأخرة. ومع هذا لم تنشأ ان تضيع وقتها فى تحديد المسؤوليات والقاء التهم. كان عليها ان تفكر برويه واتزان وان تجعله يعتقد بانها رضخت للامر الواقع واستسلمت لمصيرها.

«ليتك انذرتنى قبل الآن. فمازلت بحاجة الى بعض الطلبات».

«لا ارى مشكلة، فبوسع غاستون ان يأخذك الى كلير مون فران غداً».

«شكراً لك».

نهضت من مكانها وهى تتمتم توجهت الى الطابق العلوى حيث غرفتها وكان عليها ان تمر من امام باب غرفة بليز. وعندما وصلت وقفت تتأمله بينما الافكار تتقاذفها. لابد ان رسالة كلير فى مكان ما وراء هذا الباب الموصد. وارتفع صوت فى داخلها يحذرها ويقول لها بانها ليست مدينة لكلير بهذا المقدار. ولكن ماذا عن عمها وامرأة عمها؟ اليس من واجبها ان تحميهما من خيبة امل كبيرة كانت بانتظارهما ان هى اخفقت فى المهمة التى ارتضت القيام بها؟".

ادارت وجهها ونظرت الى الوراء. لم تر احداً ولا حتى بليز. ولكن لماذا يصعد الى غرفته الآن ؟ الم تره يستعد لقضاء السهرة فى الطابق الارضى وقد أعد لذلك كل شئ.

ظهر على شفتيها طيف ابتسامة. انها فرصتها ويجب ان تغتنمها. خلعت حذاءها واجتازت المسافة بين السلم والغرفة على رؤوس اصابعها وهى تشعر بحرج كبير وبسخف موقفها. ادارت مقبض الباب برفق فانفتح بسهولة. وبحذر بالغ دخلت واغلقت الباب وراءها وجالت بنظرها فى ارجائها.

لم تكن الغرفة بالحجم الذى تصورته. وربما بدت اصغر مما هى فعلاً لضخامة السرير الذى اختل معظمها. وكان للسرير اربعة اعمدة تحمل مظلة تتسدل منها ستائر حمراء مذهبة ثبتت الى الوراء بعروة جذابة. نظرت اندريا الى السرير بارتباك. ترى كم من الاجيال تعاقبت على هذا السرير ؟ وكم شهد من الولادات ومن الوفيات ؟

على احد الكراسى رأت اندريا ثياب الركوب التى كان يرتديها ذاك الصباح ملقاة باهمال. بدت المنضدة ذات الادراج العديدة افضل مكان لحفظ الرسائل. اتجهت اندريا اليها وجلست على كرسى صغير امامها وراحت تفتح الادراج واحداً بعد الأخر. وكانت خيبتها تزداد كلما انتهت من تفتيش احدها. بقى واحد لم تستطع فتحه.

وبما ان جميع الادارج التى فتحتها كانت تحتوى ثياباً داخلية، ظنت اندريا ان الثياب داخل ذلك الدرج ثمينة جداً والا لماذا يقفل عليها بالمفتاح ؟ حاولت ان تخلعه وراحت يدها تعبث بمقبضه. تسمرت فجأة فى مكانها وشعرت ان شخصاً يراقبها. رفعت رأسها، وفى المرآة امامها، التقت عيناها بعينى بليز لوفاليه.

«كان على ان اخيب ظنك يا آنسة فجميع اوراقى الخاصة موجودة مع المحامى فى كلير مون فران. ولظنك تبحثين عن رسالة ابن عمك».

لم تصدق اذنيها اول الامر غير ان ابتسامة الشماتة التى ارتسمت فوق شفتيه جعلتها تدرك معنى ما قال. وبصوت مضطرب واجهته قائلة:

«كنت على علم طوال الوقت ؟ كيف عرفت ؟».

«لقد علمت منذ وطئت قدماك هذا المكان. وهل كنت تظنين اننى اقوم بكل التحريات حول ابنة عمك ومحيطها وعائلتها واستثنى شكلها؟ الفرق بينكما يا عزيزتى شاسع».

«ولكنك لم تبد انك تعرف !».

«وجدت الأمر مسلياً. احببت ان اعرف مدى استعدادك للاستمرار بهذه اللعبة. ولكن رضوخك المفاجئ اثار شكوكى».

«سأغادر هذا المكان فى الحال. هل تسمح لغاستون بتوصيلى الى كلير مون فران ؟».

«ولكنك ستجدين جميع المتاجر مغلقة فى هذه الساعة المتأخرة».

«وما دخل المتاجر؟».

«لا يمكن ان تكون ذاكرتك فى مثل هذا الضعف ! هل نسيت ؟ سنتزوج بعد غد».

«هل جننت ؟».

«بل اننى مازلت فى كامل قواى العقلية. لم يتغير اى شئ. مازلت بحاجة الى زوجة وبما ان ابنة عمك غير مستعدة للالتزام بوعدها فستحلين انت مكانها يا اندريا. اليس هذا اسمك؟».

«انك لن تستطيع !».

«بل استطيع فجميع التحريات التى اجريتها اظهرت ان عمك ينظر اليك كابنة ثانية. اليس هذا صحيحاً ؟».

وعندما لم يتلق اى جواب تابع حديثه قائلاً :

«اعتقد ان تورطك فى فضيحة علنية سوف يسئ الى عمك تماماً كما لو كنت ابنته. وانت بالتاكيد لا ترغبين فى الاساءة اليه والى صحته».

«ليس هناك من فضيحة حول اسمى. فانا لم اتورط فى اى شئ ولم اقطع وعوداً خطية او غير خطية».

اجابته وهى تحدق فى وجهه.

«هناك عدة انواع من الفضائح يا عزيزتى اعدك بانك اذا لم

تتزوجى منى بعد يوم غد فاننى سوف اجر اسم عائلتك الى المحاكم والصحف البريطانية. وفى يدى ورقة رابحة هى فيليب. فانتم معشر الانجليز تأخذون بقصص الاطفال».

«ارجوك يا بليز، ذلك كفيل بتحطيم عمى ماكس وتحطيم كل آماله واحلامه».

«الأمر بيدك يا اندريا افعلى ما طلبته منك واقبلى بان تكونى زوجتى ولو الى حين».

«وهل ستدعنى اذهب، بعدها ؟».

تفرس فى وجهها واطال النظر الى الشفتين المرتعشتين والى العينين الغارقتين فى الدموع واكتسى وجهه بمسحة من الكآبة والحزن واحنى رأسه وقال :

«حسناً يا آنسة. سنة او ربما اقل من عمرك لقاء سعادة طفل. هل اتفقنا ؟».

«اتفقنا»

اجابته وجاء صوتها كرجع الصدى.

www.rewity.com

٤- للهدايا رموز

أوت اندريا الى فراشها منهكة وسرعان ما غلبها النعاس وراحت فى سبات عميق. وعندما استيقظت فى صباح اليوم التالى كان شعاع الشمس يغمر الغرفة بنور ذهبى، والسيدة بريسون تقف بجانب سريرها وتحمل بين يديها صينية كبيرة.

قالت اندريا وهى تجلس فى سريرها وتبعد شعرها عن وجهها :

«لابد اننى اطلت النوم اكثر مما ينبغى. اعتذر اذا كنت قد سببت لك ازعاجاً».

ارتسم وجه السيدة بريسون بابتسامة عريضة وبكلام كثير فهمت منه اندريا بان اى جهد تبذله تجده قليلاً بالنسبة الى عروس السيد لوفالييه.

لم تكن اندريا شديدة الحماس لملاقاة ذلك النهار لما كان يخالجها من شعور بالقلق، ورغم ذلك وجدت أن الكعك الساخن الذى احضرته السيدة كلوتيلد بريسون لذيذ المذاق فتناولته بشهية

«هل ترغب الآنسة ان احضر لها الحمام ؟».

سألتها مدام بريسون التى كانت تحوم حولها باهتمام وأردفت :

«لم يبق متسع من الوقت».

«متسع من الوقت لماذا ؟».

سألتها اندريا فرمتها كلوتيلد بنظرة عاتبة وقالت :

«للذهاب الى كليرمون فران مع السيد لوفالييه. انه ينتظرك منذ الصباح وهو الذى سيصطحبك لشراء ما يلزمك».

ظلت اندريا ساكنة برهة، ثم دفعت صينية الطعام جانباً وشكرتها وقالت لها باقتضاب وبدون مقدمات :

«لا اريد الذهاب. ارجو ان تبلغى ذلك للسيد، فأنا اشعر بألم فى رأسى».

بدا واضحا ان تصرف اندريا لم يرق للسيدة بريسون التى اربكها مابدر من سيدة القصر العنيدة فحملت الصينية وانصرفت.

راحت اندريا تتقلب فى فراشها وتضغط على الوسادة بعصبيه. انها تعرف لماذا يصر بليز على اصطحابها الى كليرمون فران. انه يريد رؤيتها.

سمعت طرقاً على الباب ودخل بليز لوفالييه بقامته المديدة ووقف برهة ينظر اليها قبل ان يقول :

«يحسن بك ان تسرعى. فأمامنا رحلة طويلة قبل ان نصل الى كليرمون فران».

«تبين لى ان لست بحاجة الى اى شئ واوضحت هذا للسيدة.»

لم يتفوه بأى كلمة واتجه نحو الخزانة الضخمة وفتحها وراح يستعرض الثياب المعلقة بداخلها. ولم تملك اندريا الا ان تلاحظ كم بدت ثيابها

www.rewity.com

هزيلة بالنسبة الى الخزانة الضخمة. بعد برهة سمعته يسألها:

«وأين ثوب الزفاف ؟ انى لا اراه».

«ثوب الزفاف ؟».

سألته اندريا مشدودة. وبدا السؤال حتى فى اذنيها فارغاً وسخيفاً.

للمرة الثانية محل شفتيه وبفظاعة قال :

«وهل انت بحاجة الى تذكير آخر ؟ قلت لك سيعقد الزواج غداً ويلزمك ثوب للمناسبة».

«انا لا ارى ضرورة لذلك انه على اى حال ليس زواجاً تقليدياً».

«انك تخدعين نفسك يا آنسة».

قال لها وبداه على خاصرتيه. ثم اقترب من السرير وراح يتأملها وقال:

«سوف يكون احتفالاً تقليدياً الى ابعد الحدود. وزواجى بالنسبة الى اهل القرية هو حدث بحد ذاته. وعليك ان تؤدى دور العروس السعيدة باتقان اولاً فى كرودون حيث يتم توقيع عقد الزواج المدنى، وبعد ذلك فى كنيسه القرية حيث ستجرى مراسم الاحتفال الدينى. لن يكون ذلك صعباً عليك فانت تجيدين التمثيل. وسوف ترتدين بالطبع ثوباً ابيض وطرحة بيضاء كأى عروس فى يوم عرسها وهذا على اى حال ما يتوقعه اهل القرية ولن نخيب آمالهم».

«لن افعل شيئاً من هذا».

صرخت فى وجهه وصدرها ويهبط من شدة الانفعال. ثم اضافت وكأنها تبرر انفجارها :

«وهذا فى رأيى منتهى الرياء !».

ولماذا ؟ الان اللون الابيض لا يصلح لحالتك ؟».

لم تعد تحتمل المزيد وصرخت فى وجهه بضراوة :

«ايها الـ . . . اخرج من غرفتى !».

نظر الى ساعته وقال لها :

«امامك خمسة دقائق لتكونى جاهزة. سانتظرك فى الطابق الارضى وارجوا ان لا تقولى لى بعد ذلك باننى لم احذرك».

وبعدما خرج شعرت انه ليس امامها اى خيار فهرولت الى الحمام واغتسلت بسرعة وراحت تحضر نفسها كما طلب، خشية ان ينفذ تهديداته.

لم يقرع الباب هذه المرة وعندما دخل كانت اندريا فى كامل ثيابها ماعدا وشاحاً من الحرير الوردى كانت تحاول ان تلفه حول عنقها.

التقت عيناها بعينيه فى المرآة وبرغم العبوس الذى كان مازال يكسو وجهه كان عليها ان تقر بمهارته فى قيادة السيارة فالمنعطفات والانحناءات الخطوة التى جعلت قلبها يقفز الى حلقها وهى فى طريقها الى سان جان دى روش لم تمثل شيئاً بالنسبة له.

لم تستطع اندريا ان تصمد طويلاً امام الجمال المتدفق من كل شئ حولها وانهارت مقاومتها واسترخت فى مقعدها تنعم بالدفء المنبعث من اشعة الشمس التى غمرت وجهها وعنقها. اختلست نظرة الى بليز... هل كان عاقد العزم على الاستمرار فى الصمت ؟

شعرت بغصة وهى تنظر الى وجهه ذى التقاطيع القوية والخطوط الشامخة. ولم تكن ترى الندبة من ناحيتها واعتقدت اول الامر ان اهتمامه كان منصباً على الطريق امامه ولكن سرعان ما لاحظ ذلك قائلاً:

«فيما تحدقين يا آنسة؟ هل تتساءلين لماذا لا اخضع لجراحة تجميلية؟».

«لم يخطر هذا الامر فى بالى اطلاقاً ولكن الان وبما انك اخترت ان تفتح هذا الموضوع فانى اسألك بالفعل لماذا ؟».

«ربما لاننى اود ان احتفظ بما يذكرنى . . . »

« يذكرك بماذا ؟».

«بأن لا شئ يدوم وخاصة تلك المشاعر التى نسميها حباً».

«ولكنها نظرة متشائمة وفيها الكثير من عدم الثقة».

«انه درس تعلمته من الحياة».

ثم غرق فى صمت عميق لم تجرؤ اندريا على اختراقه. وجلست قربه ساكنه وشرد فكرها فى متاهات بعيدة وراحت الافكار تتقاذفها. لم كل هذه المرارة ؟ ابسبب زواج لم يتم ؟ ام بسبب خطيبة تافهة جعلته يحكم على نساء الارض كلهن من خلالها ؟ لابد ان حبه لها قد ترك فى نفسه اثاراً لا تمحى والا لماذا يغرق نفسه فى كل هذا الحزن وتلك المرارة ؟ مخطئ هو اذا ظن ان الندبة فى وجهة تقلل من جاذبيته وهل يعقل ان لا يكون قد شعر بانجذابها نحوه ؟

وباحساسها المرهف شعرت اندريا ان الندبة فوق خده لم تكن تمثل شيئاً بالنسبة للجروح التى فى نفسه والتى لا شفاء له منها ربما بقدر

كبير من الحنان والعاطفة.

اوقف بليز السيارة فى شارع جانبى هادئ. وكان عليهما ان يذهبا سيراً على الاقدام الى شارع المرفأ حيث المتاجر الضخمة. ارادت اندريا ان تتمهل امام بعض الواجهات التى تعرض الاشياء الاثرية الا ان بليز استمر يسير بسرعة ولم يتح لها مجالاً للتوقف وكان عليها ان تسرع تقريبا لتجاريه فى مشيته السريعة. وعندما وصلا اخيرا الى المكان المنشود استقبلتهما عند المدخل امرأة فى العقد الرابع من العمر ذات عينين ناعستين واناقة مفرطة.

استغرقت السيدة فى حديث هامس مع بليز. وكان واضحاً ان اندريا بالذات كانت موضوع هذا الحديث وازعجها جداً ان تكون مستثناة من الحوار المفروض ان يعنيها هى قبل سواها. أولم يكن ايضا من الذوق السليم ان يشركها معهما ؟

بعد ان فرغا من الحديث رمت المرأة اندريا بنظرة متأملة قبل ان تقول لها بكل تهذيب :

«اتبعينى من فضلك يا آنسة».

وتقدمتها الى غرفة فسيحة غطيت جدرانها بالمرايا وما هى سوى لحظات حتى اقبلت على الغرفة صبية تحمل على ذراعها عدداً من اثواب الزفاف البيضاء ملفوفة فى اكياس شفافة.

كان على اندريا ان تسجل موقفاً فقالت فى الحالة وهى تشير بيدها الى الفساتين :

« لا اريد ثوباً ابيض».

لم تكن اندريا ترغب فى السماح لاى كان ان يجعل منها دمية للعرض. وثوب الزفاف الابيض يحمل معانى لم تكن موجودة فى العلاقة التى تربطها ببليز. ومهما يكن من امر فهى لن ترتدى ثوباً ابيض.

ولكن كيف وجدت نفسها بعد قليل وكأنها مسلوبة الارادة، فى فستان ابيض رائع، امر لم تستطع اندريا تفسيره.

وعندما جربت اندريا اخيرا ثوباً من قماش الاورغانزا الشفاف عادت وارسلت المساعدة لتأتيها بالطرحة لترى اندريا الصورة الكاملة التى ستبدو بها.

ظلت السيدة قربها تساعدها. ثم وبحنان ورقة نظرت الى اندريا وقالت لها :

«والآن انظرى الى نفسك فى المرآة».

نظرت اندريا فى المرآة. من هى تلك الصبية الممشوقة القوام التى تسبح فى سحابه بيضاء سماوية ؟

بعد ذلك ازاحت السيدة ستاراً فاصلاً، وبرفق دفعت اندريا امامها الى حيث كان يجلس بليز.

يجب ان لا يرانى فى ثوب الزفاف : قالت اندريا لنفسها، فذلك نذير شؤم، وارادت ان تتراجع لكنها عادت وتذكرت ان هذا الرمز البسيط لم يكن الا واحداً بين عشرات من تقاليد الزواج المحببة والتى لم تكن لتعنيهما فى شئ، فهما فى النهاية، يحضران لتمثيلية ليس الا.

رفع بصره اليها. كانت عيناه باردتين تحت حاجبين معقودين وبدا

نافد الصبر عصبياً. ربما لم يعجبه الفستان، او ربما شعر بسخف المهزلة التى كان مقدماً عليها او ربما، وهذا هو الاهم، تذكر خطيبته السابقة وهى تختال بثوب الزفاف الابيض.

اومأ برأسه اخيراً الى السيدة التى ظلت واقفة تنتظر اشارة منه وتمتم:

«رائعة».

وتوقف قليلاً ثم اضاف :

«قدمى للآنسة كل ما تحتاجه ولا تنسى الحذاء».

تقدمت اندريا منه وثوبها يبعث حفيفاً كحفيف اوراق الشجر، ووضعت يدها على زنده وقالت له بتوسل :

«ارجوك يا بليز. اصغى الى لا يمكننى ولا يجوز ان ارتدى هذا الثوب».

«ولم لا ؟».

سألها بصوت لا تعبير فيه وكانت نظرته اليها لا تختلف عن نظرة اى انسان الى تمثال جميل فى واجهة احد المتاجر وتابع :

«انه يلائمك تماماً».

«انها ليست مسألة ملاءمة او عدم ملاءمة».

اجابته، ثم خفضت صوتها عندما لاحظت ان صاحبة المحل كانت تراقبهما بفضول وتابعت :

«اذا كان يلائمنى فهو بالتأكيد لايلائم المناسبة».

لم تنجح اندريا فى اقناعه بان ارتداء هذا الثوب بالذات هو ضرب من ضروب الخيانة وانه لا يجوز ان يشوها رمزاً من رموز الحب والجمال بالنفاق. فلقد اصر على موقفه معتبراً كلامها عاطفياً وبدون منطق.

بعد ان فرغا من مشترياتهما واصبحت العلب والصناديق جميعها فى السيارة اقترح بليز وبدون اى مقدمات ان يريها الأماكن الاثرية والسياحية فى المنطقة.

كانت رحلة العودة مختلفة تماماً عن رحلة الصباح. اذ وجدت اندريا نفسها محشورة بين بليز الذى تولى القيادة وبين غاستون الذى جلس الى يمينها والرجلان فى حديث معظمة بالفرنسية وكان يدور حول امور زراعية واخرى تتصل بالقصر والتعاونية وكأنها كيس من التبن بينهما او حتى كأنها غير موجودة !

عندما توقفت اخيراً اللاند روفر فى ساحة القصر الخارجية كانت اندريا بالفعل منهكة. فنزلت من السيارة بثقل متجاهلة يد بليز التى مدها اليها ليساعدها على الهبوط. استوقفها بنبرة آمرة وسألها :

«هل تودين ان يحمل غاستون الاغراض الى غرفتك ؟».

كان بودها ان تقول له بالضبط ما توده ان يفعل بها ولكنها فضلت ان تلوذ بالصمت شكرته ببضع كلمات مقتضبة وتابعت سيرها.

وجدت اندريا السيدة بريسون فى المطبخ وكانت منهمكة فى تلميع وتنظيف اعداد هائلة من الأوانى الزجاجية والفضية والاكواب والاطباق.

كان واضحاً انها تحضر لحفلة الاستقبال التى ستقام فى اليوم التالى. لم تدر ما تقول وبتلعثم واضراب افهمت السيدة بريسون انها

اعتقدت ان الاستقبال سيقتصر على الاخصاء فقط. غير ان السيدة بريسون لم تأبه لكلامها وراحت تطمئنها بأن ما تشعر به من عصبية وضيق هو امر طبيعى ويسمى بحالة اعصاب العروس، وجميع العرائس يشعرن به.

كانت جميع العلب والصناديق فى الغرفة عندما صعدت اندريا اليها. كان بودها ان تتجاهلها، لكن قلبها لم يطعها خاصة فيما يتعلق بذلك الثوب الرائع. كان عليها ان تخرجه من علبته وتعلقه فهو لا يستحق ان يطوى داخل العلبة. وبنفس حزينة وقلب واجف اخرجته من علبته واخذت الاكليل والطرحة ووضعتها على المنضدة. التقطت عيناها صورتها فى المرآة فوقفت تتأمل نفسها. بقليل من التبرج وبشعر مرفوع ستبدو بدون شك اكثر جمالاً فى الطرحة البيضاء. اعتراها حزن مفاجئ ففى المرات القليلة التى كان يسرح فيها خيالها كانت تتخيل نفسها يوم عرسها محاطة بجميع افراد عائلتها. كانت كلير الاشبينة فى الصورة التى رسمتها فى ذهنها وكان لامرأة عمها الدور البارز فيما يختص بانتقاء الجهاز واختيار الالوان المناسبة وتسريحة الشعر.

سمعت اندرياً طرقاً على الباب وظنت انها السيدة بريسون ولم تنشأ ان تجيب فلقد كانت بالفعل فى حالة من الارهاق العصبى والنفسى والجسدى الشديد. وقالت فى نفسها ان السيدة بريسون لن تلبث ان تنصرف ظناً منها ان اندريا مستغرقة فى النوم. وبدل من ان ينصرف الطارق كما توقعت فتح الباب ودخل الغرفة. ولم تكن الخطوات التى سمعتها اندريا قطعاً للسيدة بريسون.

عضت اندريا على شفتيها واخذت نفساً عميقاً وظلت ساكنة بلا

حراك. مرت دقائق خالتها زمناً وخشيت ان يعرف انها لم تكن مستغرقة فى النوم ان هى اتت بأدنى حركة ولذلك قطعت تقريباً أنفاسها وحرصت على ان تظل فى الوضع نفسه. ثم اخيراً سمعت وقع خطواته تبتعد والباب يغلق بهدوء وراءه.

ظلت ساكنة لا تأتى بحركة حتى مدت يدها لتتناول اناملها شيئاً وجدته عندما التقطته علبة صغيرة ملفوفة على شكل هدية. كانت اندريا على يقين ان تلك العلبة الصغيرة لم تكن من بين المشتريات .

نظرت اليها بحيرة. كانت متأكدة انها اخرجت انها اخرجت جميع مشترياتها من الصناديق ولم تكن هذه من بيتها فمن اين اتت اذن وماذا كانت تحتوى ؟ راحت تقلبها بين يديها. كانت علبة صغيرة وخفيفة الوزن وكان حولها شريط معقود بشكل جذاب. امن اجل هذا دخل بليز غرفتها ؟ بدا هذا الامر صادراً عنه هو الذات، صعب التصديق. ولكن لم لا ؟ هل كانت تعرفه وتعرف حقيقته ؟ طرحت هذا السؤال على نفسها.

لم تستطع اندريا ان تكبح فضولها ففتحت العلبة لترى ما كان بداخلها. امتلأت يداها فجأة بقماش ناعم. قربته من النافذة فوجدت ان امتلأت به يداها كان قميصا ناعماً.

ما معنى هذه الهدية الحميمة ؟ تساءلت فى نفسها وماذا كان يقصد من وراء هذه البادرة ؟ فالتناقض بين هذه الهدية وما ترمز اليه وبين التدبير العملى الذى شرحه لها ووعدها به، كبير جداً.

ربما اراد ان يحذرها بأنه لن يتخلى عنها وبأنها لا يجب ان تثق

بوعوده السابقة حول كون الزواج صورياً. واذا كان الامر كذلك فما الذى كان ينتظرها يا ترى ؟ وبعد ان اعتقدت بان الامور ابتدأت تتوضح فى ذهنها جاء بهديته تلك ليقلب الامور رأسا على عقب ويبعث فى نفسها هواجس كانت تأمل فى طيها. ومرة اخرى وقعت فريسة افكارها وهواجسها.

كان عليها ان تدوس على قلبها وان تتجاهل تلك المشاعر والاحاسيس التى راحت تجيش فى نفسها ان كانت تبغى الخروج من هذه المعركة بأدنى حد من الكرامة والكبرياء. وكان عليها من اجل ذلك ان تجد طريقة ما لتفهمه بانها لن تسمح باكثر من الشكليات الرسمية المتعلقة بهذا الزواج وبانها لن تدع تصرفه يشوش تفكيرها السليم مهما كان الثمن.

اندفعت من غرفتها والقميص بين يدها. وجدت غرفة بليز غارقة فى الظلام وكان هو مازال فى الطابق الارضى كما توقعت. وقفت برهة امام الباب المزدوج الضخم ثم انهالت على القميص تمزيقاً حتى اصبح قطعاً بين يديها ورمته على سريره وانطلقت تعدو وكأن الشيطان فى اثرها.

٥- حكايات من الماضى

اعادت اندريا كوب العصير بدون ان تمسه.

كانت السماء متجهة والمطر ينهمر بغزارة كقطع من فضة. اسندت جبينها الملتهب الى زجاج النافذة وشعرت ببرودة مريحة. كانت تشعر بانزعاج شديد من دبابيس الشعر التى كانت تسبب لها زخزاً فى رأسها.

وأخيراً وجدت نفسها فى الغرفة وحدها اذ خرج بليز ليودع الكاهن وطبيب القرية وهما آخر الضيوف.

وكانت اندريا ذلك الصباح قد وقفت بين الضيوف تبتسم تارة وتصافح الايدى الممدودة تارة اخرى، وتتمتم بكلمات الشكر مرة ثالثة حتى كاد رأسها ينشق الى نصفين بسبب الجهد الذى بذلته.

سمعت الباب الخارجى يغلق وتحفزت لملاقاة بليز الذى ما لبث ان دخل الغرفة بقامته المديدة. وبدا فى طقمه الاسود الرسمى وقميصه الناصع البياض مفرط الاناقة جذاباً. لكنه كان اكثر تباعداً وتحفظاً كعادته. وخيم على الغرفة صمت ثقيل قطعته اندريا بقولها :

«هل ذهب جميع الضيوف ؟».

«نعم ».

أجابها وهو يرفع حاجبيه مستفهماً وتابع :

«ولم تسألين ؟ لابد انك متشوقة للانفراد بى !».

شعرت اندريا بالدم يصعد الى رأسها ولكى تخفى ارتباكها اجابته بشئ من الغطرسة والاستفزاز قائلة :

«وهل يعقل هذا ؟»؟

«احذرى يا اندريا !».

صرخ بوجهها وعيناه كانت تضيقان.

لم يكن قد تسنى لهما حتى تلك اللحظة ان يتحدثا على انفراد ولذلك لم يكن لدى اندريا ادنى فكرة حول رد الفعل الذى اثارها فى نفسه تمزيق قميصها الحريرى الذى اهداها اياه الليلة السابقة. على ان اندريا شعرت وهى تقف بقربه فى مبنى المحافظة ذاك الصباح وبعدها فى الكنيسة الصغيرة فى القرية، بعاطفة تهز كيانه هزاً وكأنه عاجز عن السيطرة الكلية عليها وذلك برغم حرصه على الظهور بمظهر المتمالك اعصابه والمسيطر على الموقف تماماً. وعندما انحنى ليطبع قلبة الزواج التقليدية على وجنتها بعد ان اعلنهما الكاهن زوجين بالكاد لامست شفتاه خدها وكانت عيناه المغمضتان تحجبان عنها ما كان يجيش فى داخله من أحاسيس.

اشتد الصداع فى رأسها ولم تعد تقوى على تحمل الطرحة والدبابيس اكثر من ذلك. فانتزعتها عن رأسها وتركت شعرها ينساب حول وجهها وعنقها وعلى كتفيها على ذلك يريحها ويخفف من ألم رأسها.

ظنت انها سمعت شهقة مكتومة صادرة عن بليز ولكنه كان عندما نظرت اليه جامداً كالصخر ووجهه كلوح اردوازى ممسوح. اخرج من جيبه علبة سجائر واحد سيجارة واشعلها بهدوء وتأمل. وكان على اندريا ان تبلل شفتيها الجافتين قبل ان تستطيع التكلم وقالت :

«هل تتوقع ضيوفاً بعد؟ ام انه اصبح باستطاعتى ان ابدل ثيابى الآن ؟».

«كلا. ولكن لم العجلة؟ انت فاتنة فى هذه الثياب ونحن الآن وحدنا».

«ربما، ولكننى لا اشعر بالراحة، وليس هناك ما يوجب بقائى فى هذا الثوب. فلقد انتهى الدور واعتقد بأننى قمت به خير قيام، والآن أود ان اعود الى حقيقتى».

«وما هى حقيقتك تلك التى تودين استرجاعها؟ انت الآن يا عزيزتى السيدة اندريا لوفالييه ويجب ان لا تغيب هذه الحقيقة عن ذهنك».

«وهل يعقل ان أنسى ؟».

تمتمت وعيناها على الخاتم حول اصبعها ورفعت يدها ودلت عليه وهى تقول :

«واذا ما نسيت فان هذا كفيل بتذكيرى !».

«ولكنه للأسف مؤقت».

اجابها وهو ينزع سترته ويضعها باهمال على احد الكراسى ثم تابع:

«على ان اجد طريقة تجعلك تشعرين بحقيقة هويتك الجديدة يا سيدتى».

وضعتها كلماته تلك فى حالة استنفار وحذر لكنها اجبرت نفسها على الاحتفاظ بهدوء اعصابها وقالت :

«لدى فكرة».

«حقا انك تحيرينني يا سيدتى وما هى فكرتك تلك ؟».

«أنا اعلم ان زواجنا شكلى فقط. ولكن هل سينطبق هذا الوضع الشكلى على مركزى فى المنزل ايضا ؟».

«لا افهم. عم تتكلمين ؟».

«قالت لى السيدة بريسون انها تريد بعض الوقت لتتصرف الى اشغال الابرة وبأنك وعدتها بذلك بعد الزواج. فاذا كانت حقاً هذه ارادتك، فهل يعنى ذلك سأكون مسؤولة هنا واتمتع بصلاحيات ربه المنزل؟».

«وأى صلاحيات تريدين ؟».

سألها وفى عينيه لغز محير.

«هناك تغييرات عديدة يحتاجها القصر وفى نيتى اولا ان اجعل الجناح الذى نشغله اقل قفرا واكثر رونقاً».

توقفت قليلا، وعندما لم تحظ منه بأى جواب تابعت وكأنها تدفع عن نفسها تهمة :

«ولدى بعض المال. واريد فقط ان اعرف اذا كنت ستطلق يدى فى هذه الامور ام انه على ان اعرض الأمر عليك قبل تنفيذه ؟».

«يجب ان تحصل على موافقتى فى الامور الكبيرة فقط. ؟ ولكننى لا اريدك ان تنفقى من مالك، فأنا لست معدماً كما تظنين ! ».

«لم يخطر هذا الامر ببالى ما اردت الا المساعدة فقط».

«انا لا ارفض مساعدتك. كل ما فى الامر اننى اريد منك ان

تجعليها تقتصر على الامور العملية فقط».

ظهرت على وجهه ابتسامة عريضة عندما رأى ما ارتسم على وجهها من علاقات التمرد والتحفز. ثم تابع :

«اعتقد انه من الافضل ان تبدأى عملك بتجهيز غرفة لفيليب. فلقد اصبح بامكانى ان اضمه الى الآن وكلفت المحامى ان يجرى اتصالات مع سيمون وذلك لنزع وصياتها عنه ونقلها الى. وعلى هذا فان قدومه الينا اصبح وشيكاً».

«حسناً. .. كم عمره ؟».

«خمس سنوات تقريباً».

أجابها وبعد تفكير قصير أردف :

«ألا يزعجك وجود طفل لا تعرفينه ؟».

«أنا شغوفة بالاطفال».

وأربكها ان ترى ما ارتسم فى عينيه من اهتمام، وعندما اجابها برقة قائلا :

«سوف اتذكر ذلك دائماً».

«هل اصبح بامكانى الذهاب الآن ؟».

«اذا كنت مصرة، لكن يجب ان احذرك بأن كلوتيلد تتوقع منك تصرفاً غير هذا. فهى من عائلة شديدة التمسك بالتقاليد وربما كان عليك ان تنتظرى منها محاضرة طويلة حول واجباتك كزوجة، فهى لا تقبل اى مزاح فى هذا الموضوع، ولم تكن راضية اطلاقاً عندما رفضت

السماح لها بنقل ثيابك الى غرفتى وساءها جداً هذا الأمر.

شغلت اندريا نفسها بترتيب غرفة الطعام. كانت بدون شك الغرفة الاكثر استعمالا فى البيت كله ومن الطبيعى اذن ان تبدأ بها. تأملت الستائر الذهبية التى بهت لونها وخبا رونقها بمرور الزمن. لابد انها كانت فى منتهى الجمال والفخامة ذات يوم، ولن يكون من السهل اطلاقاً ايجاد القماش نفسه وان وجد فلا شك بان ثمنه سيكون باهظاً جداً نظراً للخيوط الذهبية التى كانت تتخلله.

ربما حالفها الحظ ووجدت قماماً قريباً منه ولا بأس ان كان اقل فخامة وجودة، وعندها يمكنها ان تستبدل ما يلى من الستائر وربما بعض اغطية الكراسى ايضا. حملت بعض الاكواب الفارغة وتوجهت الى المطبخ حيث كانت كاوتيلد تحضر طعام العشاء. نظرت الى اندريا باستنكار ولم تقل شيئا. ولكن عندما اخبرتها اندريا انها كانت ستجهز غرفة لفيليب. اثث عليها وعرضت ان ترافقها فى جولة عامة على غرف الطابق العلوى.

ادركت اندريا حتى قبل ان تنتهى من استعراض الغرف فى القصر، حجم المسؤولية التى جلبتها لنفسها وارتضت بها. لم تر غرفة واحدة تصلح لطفل فى الخامسة من عمره فجميع الغرف كانت كبيرة جداً واثاثها من النوع الضخم والطراز القديم الذى لايمكن ان ترتاح اليه الاطفال.

لم يبد ان السيدة بريسون فهمت ما كانت اندريا ترمى اليه. فجميع الغرف فى نظرها كانت صالحة وأى واحدة منها تليق بالسيد فيليب ولم توافقها ابداً على ان الاثاث الضخم والستائر القاتمة الالوان تشكل عائقاً.

قالت اندريا وهى تبعد عن وجهها خصلة من الشعر تهدلت عليه :

«الا يوجد فى القصر كله غرفة اصغر قليلا من هذه التى استعرضناها الآن ؟».

بسطت كاوتيلد يديها وكأنها تستسلم وأخبرت اندريا ان جميع غرف الطابق العلوى كانت غير صالحة للاستعمال وهى على اى حال تقل ضخامة من غرف الطابق السفلى.

«وماذا عن البرج ؟».

«لم تطأه قدم منذ وفاة السيد الكبير. ويقال انه غير آمن».

«أريد ان القى نظره عليه».

كانت جميع الابواب المؤدية الى ذلك الجزء من القصر موصدة واستغرق التفتيش عن المفاتيح وقتاً طويلاً. وعندما فتح الباب الكبير اخيراً محدثاً صريراً قوياً لم تتمالك اندريا شعوراً غريباً اجتاح كيانها. صعدت الدرج اللولبى المؤدى الى الطابق العلوى ووجدت نفسها فى غرفة فسيحة عارية تماماً. تفحصت الارض بقدميها فوجدتها صلبة. نظرت حولها بتفاؤل. فهذه الغرفة المستديرة ذات الجدران المنحنية تبدو ملائمة جداً وارتسمت الصورة النهائية فى رأسها. كانت ستختار اثاثاً بسيطاً وحديثاً والواناً مبهجة للنظر وكانت ستفرش بسطاً ذات الوان زاهية وقابلة للغسيل اما الغرفة السفلى فستحولها للمطالعة واللعب بعد ان تكون قد افرغتها من محتوياتها بالطبع.

برز رأس كلوتيلد من الباب الافقى فى ارض الغرفة وقالت لها وفى صوتها قلق وخوف :

«احذرى يا سيدتى».

«لا عليك. الغرفة سليمة ولا يوجد اى خطر. الا تظنين انها تصلح لفيليب ؟ انها مثالية لطفل فى سنة».

تجهم وجه السيدة بريسون وتمتمت بكلام لم تفهم منه اندريا شيئا.

«ما الامر ؟».

سألتها اندريا بانزعاج وتابعت :

«لا تقولى لى الآن ان البرج تسكنه الارواح او اى شئ من هذا القبيل!».

هزت السيدة بريسون رأسها بالنفى ولكن النظرة الحذرة لم تفارق عينيها وقالت :

«ان ارواح الاموات من آل لوفالييه ترقد بسلام يا سيدتى. لكن هناك بعض الشائعات والاقاويل».

«حول هذا البرج بالذات ؟».

بدا واضحاً ان كاوتيلد لم تكن تجد هذا الموضوع ما يلى فقالت باقتضاب:

«حصلت مآسى هنا».

«لكل بيت قديم نصيبه من المآسى. وربما عرف سكان هذا القصر أوقاتاً سعيدة ايضا. الشفاء والسعادة يتساويان بالنتيجة ويلغى الواحد منهما الاخر. الا توافقين؟».

لم يبد ان السيدة بريسون اقتنعت بهذا الكلام. ولكن اندريا لم تأبه لذلك واقتربت من احدى النوافذ ومدت رأسها من بين الالواح

المكسوة بالغبار وسرح نظرها الى البعيد.

كانت منظر الطبيعية خلاباً وبدت بيوت القرية كلها من تحتها وراء النهر يتلألأ فى عمق الوادى السحيق. قررت ان تضع اريكه او ربما وسادة على افريز النافذة وتحوله الى مقعد، وتمنت لو تحتفظ بهذه الغرفة لنفسها، لكنها كانت متأكدة من ان بليز لايمكن ان يرضى بذلك فالغرفة كانت بعيدة ومعزوله عن باقى اجزاء القصر.

قطع عليها حبل تفكيرها صوت كلوتيلد التى قالت :

«الا تعتقدين انه يحسن ان تبحثى الامر مع السيد لوفالييه قبل اتخاذ اى قرار ؟».

حدقت فيها اندريا وكأنها عادت فجأة الى دنيا الواقع وقالت لها :

«سأخبره بالتأكيد. ؟ ولكنى لا اتصور بانه سيمانع. فهذا المكان افضل من اى مكان اخر فى القصر. انه دافئ ومريح واعتقد ان شكله غير عادى سيسعد طفلا فى الخامسة من عمره. انه يروقنى كثيراً».

قالت هذا ثم عادت الى النافذة تحاول فتحها. كان خشبها قديماً ومتيبساً ومفصلاتها تعلوها الصدأ. وخافت اندريا ان تكسرها لو ضغت بقوة اكثر. ولكن بعد قليل شعرت بالمفصلات تلين قليلا بين يديها وما لبثت النافذة ان انفتحت على مصراعيها مرسلة اصوات احتجاج حادة.

نظرت اندريا الى كلوتيلد بانتصار وزهو وقالت :

«هذا كل ما يحتاجه هذا المكان. الهواء النقى وبعض التغيير. الا توافقين ؟».

كانت اندريا تزيل بمنديلها ما علق من غبار على يديها عندما سمعت صفيراً منبعثاً من مكان ما فى باحة القصر. نظرت الى اسفل والتقت عيناها بعينى الآن الذى كان هو الآخر الى اعلى.

«ما الذى تفعلينه عندك ؟ هل تقومين بدور رابونزل ؟».

«شئ من هذا القبيل. ولكن للأسف ان شعرى ليس طويلاً لاجعله حبلا تتسلق عليه !».

«اظن ان الدرج عملى اكثر ولا يسبب الماً لأحد. هل هناك درج ؟ وهل يمكننى ان اصعد اليك ؟».

وقبل ان تجيبه، سمعت اندريا السيدة بريسون تتنحنح وراءها. من الواضح انها لم تكن تقر مثل هذا الحديث من عروس فى يوم عرسها. ولذلك قالت له :

«هناك بعض التعقيدات. سأنزل أنا اليك».

هبطت الدرج ببطء ويدها على الحائط لتحفظ توزانها مما جعل بصرها يستقر على الخاتم الذهبى العريض الذى كان يزين اصبع يدها اليسرى.

ماذا كانت ستقول لآلان ولم يمض بعد ثمان واربعون ساعة على تأكيدها له بأنها كانت فى مهمة عمل ولا يربطها ببليز غير علاقة عمل؟

كان عليها ان تمر بالبناء الرئيسى قبل ان تخرج الى الساحة لملاقاته كما وعدته، فتركت السيدة بريسون فى البرج وطلبت اليها ان ترصد الابواب كما كانت.

ما ان وقع بصره عليها حتى سألها والامل يعلو وجهه :

«هل تريدين فنجاناً من الشاى ؟».

«كلا، شكراً».

اجابته وهى تحاول ان تجد الكلمات المناسبة لتخبره بما جد بدون ان تصدمه بالحقيقة. واستقر رأيها اخيراً على ان تخبره بطريقة مباشرة وصريحه فقالت :

«اكثرت من الطعام والشراب اليوم».

«هل كنتم تحتفلون ؟».

«شئ من هذا القبيل».

اجابته وهى تخرج يدها من جيبها وتريه الخاتم فى اصابعها.

«يا الهى !».

قال كمن صعق وانتزع نظارتيه عن عينيه ومسح زجاجهما بطرف سترته وسألها مشدوهاً :

«ومتى حدث هذا ؟».

«هذا الصباح. ربما بدا لك ذلك غريباً».

«انه لا يعنينى فى شئ».

اجابها بأدب شديد واستدار لينصرف.

«بحق الجحيم».

صرخت اندريا لتوقفه عن الانصراف ثم اضافت :

«اما زال عرضك بخصوص فنجان الشاى قائماً ؟ اود ان اشرح لك

الأمر !».

«بالطبع انه قائم، ولكن لالزوم لاى شرح. انها حياتك وانت حرة ولا شأن لى بها، ولكننى بصراحة لا استطيع ان اتصورك مع هذا الرجل الاسمر !».

توقف قليلاً وعلا الاحمرار وجنتيه ثم قال :

«المعذرة. ربما لم يكن من اللائق ان ادعو السيد لوفاليه بهذا اللقب امامك مع ان التسمية تلائمه جداً».

«صحيح».

اجابته وهى ترجع يدها الى جيب سروالها وتتقدمه بضع خطوات باتجاه غرفته.

وبعد ان شربا الشاى نظر اليها الآن بامعان ثم قال :

«أرجو ان لايكون هناك اى ضير من سلوكنا هذا، فالمفروض انك فى شهر العسل. وكيف يتركك تغيبين عن عينيه ولو للحظة واحدة؟».

«عندما قلت اننى هنا فى مهمة، لم يكن ذلك مغايراً للحقيقة. وليس بيننا اى علاقة حب لكى تعتبر هذا تطفلا».

وما ان تفوهت بهذه الكلمات حتى شعرت بضخامة الالم الذى سببته له. ولم تجد الا الشاى ملاذاً لها فى تلك اللحظة فراحت تشربه وكأن راحتها تمكن فى هذا السائل الذى حرق فمها.

«لن اتظاهر باننى فهمت شيئاً، فانا فى الحقيقة لم افهم ولكننى اعرف امراً واحداً وهو اننى لا اريد ان يهجم العريس، فاقدا اعصابه،

www.rewity.com
مـــروريـــة

ليقطعنى ارباً ! هل تعلمين ان الجريمة العاطفية لا تزال تعبيرا دفاعاً عن النفس فى فرنسا ؟».

تبسمت اندريا وهى تهز رأسها ولم تجب.

عاد الآن الى الكلام وقال :

«ولكنك لم تخبرينى ماذا كنت تفعلين فى البرج كنت اظنه منطقة محرمة !».

«لم تبد كلوتيلد اى حماس للفكرة ولكنها لم تقل لى اى شئ من هذا».

«لا استغرب عدم حماسها للفكرة فربما كانت تخشى ان تلتقى مع مارى دنيز وجهاً لوجه !».

«ومن هى مارى دنيز ؟».

«لو ولدت قبل مئتى سنة لكنت عرفت مارى دنيز. يبدو انها كانت زوجة كبير عائلة لوفالييه فى ذاك الوقت. وكان للعائلة اذ ذاك لقب تخلوا عنه ابان الثورة الفرنسية فيما بعد».

توقف الان قليلا ورمى اندريا بنظرة ثاقبة قبل ان يتابع قصته :

«ويقال ان زواج مارى دنيز من زوجها كان مدبراً ولم يكن احدهما قد رأى الاخر قبل الزواج. وعندما وجدا نفسيهما وجها لوجه يوم الزفاف شعرا بنفور متبادل بحسب الشائعة الرائجة اليوم. وبعدها بقليل رجع الماركيز الى فيرساى لكنه لم يصطحب مارى دنيز معه وتركها فى القصر لتتعم وحدها بلقبها الجديد».

«وهل تمتعت باللقب ؟».

«يبدو انها كانت فتاة جريئة ومليئة بالحيوية فما لبثت بعد ان تركها زوجها ان وجدت عزاءها فى احدهم، فحملت فى غياب زوجها وولدت صبياً. ولابد انه كان للماركيزة اعداء لان احدهم على ما يبدو نقل الخبر للماركيز الذى هرع الى القصر عند سماعه النبأ وكان قدومه غير متوقع. ولكن وعلى ما يبدو، هناك ما دفع الماركيزة الى اتخاذ الحيطة فعندما وصل الى القصر لم يكن الطفل فيه بل كان مع حاضنته فى مكان آمن فى الخارج وبدا كل شئ طبيعياً. والفلاحون فى اعمالهم كالمعتاد بقى عدة ايام فى القصر ثم رجع الى باريس معتقداً بان الخبر كان دسيسة مغرضة ولا صحة له».

«وكيف عرفت كل هذا ؟».

«الم اقل لك اننى جئت الى هنا لادرس تاريخ المنطقة ؟ وهذه احدى القصص التى يتبرع الناس بسردها بدون اى مقابل. سمعت ما يزيد عن عشر روايات حولها لكنها جميعها متشابهة من حيث الوقائع. فجميع القصص مثلاً تقول ان والد الطفل الحقيقى بقى مجهولاً. منهم من قال انه احد المالكين فى الجوار ومنهم من ذهب الى القول بانه احد الفلاحين ومنهم من قال بانه كان رئيس عمال الماركيز».

«يبدو انها كانت، سيدة ذات نشاط واسع !».

«انما ليس كما تتصورين. فبعد ولادة الطفل لم يعد احد يسمع باى فضيحة. ويقال بانها كانت سيدة محبوبة وذات شعبية واسعة، تحسن معاملة الخدم اكثر من زوجها. وفى المرات القليلة التى كان يأتى الماركيز لزيارتها كانت دائماً ترسل الطفل الى مكان آمن حتى يحين موعد انصرافه».

«الم يكتشف الماركيز امر هذا الطفل ابدا ؟».

«بلى».

اجابها آلان بأسى وتابع :

«يبدو انه كان لمارى دنيز عدو لدود، ربما ذلك الشخص نفسه الذى اخبر الماركيز عن الطفل فى المرة الاولى وفى احد الايام تظاهر الماركيز بالسفر ثم فاجأ زوجته بعودته فى اليوم نفسه.

وعندما وصل الى القصر كانت مارى دنيز مع طفلها فى البرج. كانت تداعبه وتدندن له الحانا رقيقة، ولما رأت زوجها الماركيز يدخل من الباب فجأة حاولت ان تتقدم منه بعذر مقبول فادعت انه ابن احدى الخادمات وبانها تدربه ليصبح خادمها المخلص فى المستقبل. وهكذا علم الماركيز بالأمر».

«وماذا قال لها عندها ؟».

«لم يقل شيئاً... تظاهر بأنه صدقها واستمر يؤدى دور الزوج المطمئن خلال اسبوع كامل كان اثناءه يتفقد املاكه الشاسعة ويقيم الحفلات ويبادل فلاحيه الاحاديث الودية. ومارى دنيز قامت بدورها كذلك. لم تعد تخفى ابنها لكنها حرصت على ابقائه بعيداً عن الماركيز ظناً منها ان مالا تراه العين لا يمكن ان يؤذى القلب. وفى احد الايام صعدت الى البرج ووجدت الباب موصداً والمفتاح ليس فى ثقبه. ارادت بالطبع ان تعرف السبب فقال لها زوجها ان المكان غير آمن لأن طفل احدى الخادمات وقع من احدى النوافذ ومات فى الحال».

صرخت اندريا وهى تحدق فيه مصعوقة :

«يا الهى!. وماذا فعلت بعد ذلك ؟».

«وما الذى بامكانها فعله ؟ لم يكن بوسعها ان تثبت شيئاً. كان عليها ان تستمر فى التظاهر. ولم تستطع ان تندبه او ان تلبس عليه ثياب الحداد.

وعندما ذهب الماركيز الى باريس اصطحبها معه ولم يعودا بعد ذلك الى سان جان دى روش. وبعد بضع سنوات تناهى الى الاسماع ان الاثنين ارسلا الى المقصلة فى عهد الارهاب. وانتقل القصر الى احد ابناء عم الماركيز اذ لم يكونا قد انجبا اولاداً. ومنذ ذلك الحين ساد الاعتقاد بأن البرج يجب ان يظل مقفلاً والا عادت اليه مارى دنيز بحثاً عن ابنها».

كانت اندريا ترجف، وقالت:

«أكدت لى السيدة بريسون انه لا اشباح فى المكان».

«بالطبع لا يوجد اشباح انها مجرد قصة وامل ان لا اكون قد اخفتك».

«كلا لكننى كنت عازمة على تحويل البرج الى غرفة لطفل صغير ننتظر قدومه ليعيش معنا. انه ابن شقيق زوجى ولكننى، بعد هذا قد أغير رأيى».

«ربما تكون اعادة المكان الى الاستعمال افضل حل يضع حداً لهذه الخرافة».

لم تقتنع اندريا بهذا الكلام ولكنها ادركت السبب الذى جعل السيدة بريسون تصر على ضرورة اخذ رأى بليز فى الموضوع.

نهضت اندريا من مكانها واستأذنت بالانصراف.

اطالت اندريا النظر الى صورتها فى المرآة. بدا كل شئ ولو فى الظاهر على ما يرام. كان شعرها الكستنائى معقوصاً خلف اذنيها وحوله شريط رقيق من لون الثوب وتدلى من اذنيها قرط ذهبى دقيق الصنع. على ان الشحوب الذى ملأ وجنتيها افشى حقيقة امرها. وبدت عيناها شديدتى الاتساع، وحول فمها ارتسمت علامات الارهاق الشديد. اطلقت تنهيدة من اعماقها فلم تكن تود ان تظهر امام بليز فى هذه الصورة التى توحى بالضعف والاستسلام. ولكنها عادت وتذكرت انه ليس فى القصر كهرباء ومن المحتمل اذن الا يلاحظ بليز شحوب وجهها والهالات السوداء تحت عينيها.

وقفت اندريا على باب الغرفة التى تحولت بقدرة قادر الى عش غرامى يوحى كل ما فيه بالحب والحنان. حتى القناديل العادية وغير المثيرة استعيض عنها بشموع اضفى نورها على الغرفة جواً رومانسياً لطيفاً.

ترددت اندريا قبل ان تدخل وراودتها فكرة الهروب. ارادت ان تحتمى فى غرفتها لكن العقل قال لها ان تبقى وتحاول ان تظهر بمظهر من لم يلاحظ شيئاً غير عادى. واهم شئ قال لها عقلها، هو ان لا تدع بليز يرى الانفعالات المرتسمه على وجهها.

قطع حبل تفكيرها صوت خفيف انبعث من مكان ما فى الغرفة. رفعت اندريا رأسها لترى بليز واقفاً بقرب الأريكة، كان وجهه فى الظل ولذلك لم تستطع اندريا ان تقرأ ما ارتسم على ملامحه من مشاعر واحاسيس.

«اخفتنى».

«اخبرتنى كلوتيلد بانك ترغبين فى تحويل البرج الى غرفة لفيليب».

اختلست اليه نظرة سريعة علها ترى فى وجهه ما لم تستطع ان تتبينه من صوته فاجابته بحذر :

«بدت فكرة لا بأس بها اولاً ولكننى لم اعد متأكدة الان من صلاحيتها».

«هل لى ان أعرف السبب الذى جعلك تغيرين رأيك ؟».

«اعتقد ان الامر واضح. سمعت قصة مارى دنيز».

«آه. .. اذن اخبرك احدهم هذه القصة القديمة».

«ألا تصدقها انت ؟»؟

«لكل بيت عريق نصيبه من القصص. ولكن لا يجب ان نبالغ فى اهميتها. فمن الصعب جداً بعد كل هذه السنين ان تفصل الحقيقة عن الخيال».

«هل امضى فى مشروعى الاول اذن ؟ اعترف لك بان الفكرة بدت جذابة الى ان تحدثت مع السيدة بريسون بشأنها. عندما فقط ساورتنى الشكوك».

«اود ان اطلى الجدران من الداخل باللون الاصفر الباهت ففيه جمال ودفء. واود ايضا ان ابتاع بعض الاثاث البسيط وسريراً حديث الطراز يصلح لطفل صغير».

«افعلى ما ترينه مناسباً وسأطلب منْ غاستون ان يفحص الارض

والسقف والنوافذ. ربما كان من الافضل ان نحدد النوافذ فذلك اسلم. الا تعتقدين ؟».

«لا اريد ان يشعر فيليب فى سجن. ربما كان من الانسب ان تطلب الى غاستون ان يضع مزلاجاً للوقاية فلا تعود تفتح النافذة الا من القسم العالى فيها ومن اجل التهوئة فقط.

٦- رفيق المساء

كانت تجتاز القاعة الكبيرة عندما سمعت اصواتاً من مكان قريب، ظنت اول الامر انها كلوتيلد، واستعدت لملاقاتها فهى بلاشك سوف تلقى عليها محاضرة من نوع ما، وسوف تخضعها للاستجواب حول نهوضها المبكر ذاك الصباح.

انفتح باب غرفة الطعام وظهر بليز فى حالة يرثى لها. كانت سترته تتدلى باهمال من احد كتفيه وربطه عنقة اخفت. كان قميصه مفتوحاً حتى الخصر. وقف امامها منبوش الشعر احمر العينين والجذامة تكسر ذقنه. تقلصت عيناه عندما وقع بصره على اندريا وبدا وكأنه يجد صعوبة فى تركيز نظره.

«اسعدت صباحاً يا سيدتى، ارجو ان تكونى قد امضيت ليلة هادئة».

تدفقت ذكريات الليلة السابقة الى رأسها. لكن ما لبث ان سحقت تلك الذكريات واستحوذت على كيانها كبرياؤها المجروحة وكرامتها المهدره واجتاحها غضب شديد.

WWW.REWITY.COM

رفعت رأسها بكبرياء وشموخ قبل ان تجيبه قائلة :

«ليس عليك ان تقدم اى تبرير لاعمالك امامى، ايها السيد. واذا اردت ان تصل الى هذا الدرك، فهذا شأنك وحدك».

«لا تستفزينى يا عزيزتى الم تأخذى من الليلة السابقة اية عبرة؟».

هزت كتفيها وتعمدت ان تدير له ظهرها لئلا يرى ما ارتسم على وجهها من مشاعر وقالت بحذر :

«انا لا اريد استفزازك. وما تفعله لا يعنينى فى شئ ويتعلق بك وحدك. وهذا كفيل على الاقل بعدم تدخل احدنا فى شؤون الاخر ».

انك تخدعين نفسك يا اندريا. فلن اتأخر عن التدخل فى شؤونك عندما لا ارضى عن سلوكك ».

قال ذلك واقترب منها وراح يتأملها بعينين فيهما كآبة وحزن ثم تابع :

«ولذلك، فاننى افضل ان تقللى من زيارتك الى البيت المجاور للبوابة ».

استبشعت كلامه فنظرت اليه وعيناها تقدحان شرراً واجابت :

«لن امتثل لهذا الامر ولا يحق لك ان تتوقع... ».

«بل ان لى كل الحق، لا تنسى انك زوجتى وعليك ان تتصرفى بطريقة لائقة ».

«ليس هناك شئ غير لائق بالنسبة الى اجتماعى بالان وودهاوس، اننى اجد رفقته مسلية. هذا كل ما فى الامر ».

«وهذا بحد ذاته يكفى ! ».

«اننى لا اصدق اذنى ! لا تنس اننا ابناء وطن واحد فى بلدة غريبة ومن الطبيعى ان نتبادل الزيارات من وقت الى اخر. الا ترى ذلك ؟ ».

«بل ارى ذلك وابعد من ذلك لكننى احذرك يا اندريا. فان لم تتفذى اوامرى سوف يجد ابن بلدك هذا نفسه مضطراً للتفتيش عن مكان آخر يقيم فيه لانهاء دراسته ».

«لم اسمع فى حياتى كلها شيئاً اقل عدلاً من هذا يا الهى، ان من يسمعك تتكلم هكذا يظن بانك تشعر بالغيرة بدل ان... ».

«بدل ماذا؟ ».

«بدل ان تشعر كمن اعطى شيئاً لا يرغب به ولا يشتيه ».

«ربما كان هذا صحيحاً. ولكن اجدنى مضطراً الى ان احذرك، فعضتى اشد ايلاماً من نباحى، كما يقول المثل، ولابد انك اكتشفت ذلك انت بنفسك فى اكثر من مناسبة. رجائى ان تأخذى ما اقوله لك كنصيحة من صديق وتعملى بموجبها».

«وهل للصداقة معنى بيننا؟ ».

سألته بيأس وتمنت، بعد ما ارتسم على وجهه، لو تسحب الكلمات ولكن ما قيل قد قيل وكان عليه ان يجيب. ومضت عيناه برهة ثم ما لبث بريقهما ان خبا وجاء صوته عندما تكلم خالياً من اى تعبير.

«ربما انت على صواب. فالصداقة لا تعنى الكثير لنا بالنظر الى الرباط القائم بيننا. فما بيننا يمكن ان نسميه تحملاً متبادلاً ».

انهى كلامه وهو يتمطى ويمرر اصابعه بين خصلات شعره الاسود قالت :

«صنعت بعض القهوة وهى لاتزال ساخنة على ما اعتقد ».

«انك تغمرينني بلطفك يا عزيزتى، لو ان الظروف كانت مختلفة».

وعندما لم تجب اطلق ضحكة خفيفة ثم انصرف. وغمر اندريا شعور بالرضى وهى تهبط الدرج، فالاسبوعان اللذان صرفتهما فى ترتيب البرج، وتحويله الى غرفة لفيليب اعطيا نتائج طيبة. كانت اندريا، بمساعدة غاستون، قد طلت الجدران بلون اصفر هادئ وغطت الارض ببساط وعلقت على النوافذ ستائر ذات الوان ونقرش زاهية وكانت ايضا قد صنعت مجموعة من الوسائد والارائك وغطتها بقماش ذى الوان ملائمة وكدستها على افريز النافذة الداخلى وحولته الى مقعد مريح. وكان غاستون قد اكتشف خزانة صغيرة فى احدى زوايا القصر فاحضرها لها. طلتها اندريا باللون الابيض وحولتها الى خزانة للالعاب والكتب وبذلك اصبح عليها ربما ان تشترى بعضاً منها. لم تشأ ان تسأل بليز او تأخذ رأية فى هذا الموضوع لئلا يعتقد بانها كانت تتحرش به، لم يكن حتى ذلك الوقت قد ابدى اهتماماً بما كانت تقوم به من اعمال.

وعندما احضر غاستون مزلاجاً وركبه على النافذة وثبت الباب الموجود فى ارض الغرفة كما طلبت اندريا، كان يخيم على المكان جو من الكآبة لم تستطع حتى الحمائم التى كانت قد صنعت اعشاشها على السطح المائل، ان تبدده. لم يكن غاستون قد اتى على ذكر مارى دنيز اطلاقاً غير ان صورة ذلك الطفل ما برحت فى خيالها. هل دفعه

احد من النافذة متعمداً قتله ام انه وقع عرضاً ولقى مصرعه؟ ».

بدا لها انهماكها غريباً وهى لا تعرف الطفل. على ان ذلك لم يزعجها اطلاقاً، فانشغالها فى الاعداد لاستقبال فيليب صرفها عن التفكير فى امورها الشخصية. ولطالما حاولت ان تكون صورة عنه الا ان بليز لم يساعدها على ذلك واكتفى بالقول بانه كان كثير البكاء وبانه لم يره منذ كان فى الاشهر الاولى من عمره.

لمست اندريا عدم اكتراث عند بليز تجاه الطفل فهو لم يكن يبدى اى اهتمام بكل ما يتعلق به ولذلك لم تفهم سبب اصراره على حقه بالوصاية، اللهم الا اذا كان حب السيطرة والتملك هو الدافع الوحيد لذلك. أوليس فى تصرفه تجاهها هى بالذات الدليل على ذلك ؟ وهذا الطفل، ألم يكن عليه ان يتغلب على شتى الصعوبات ليتأقلم مع بيئته الجديدة ؟ ربما كان شعور بليز بالمسؤولية تجاه اخيه المتوفى الدافع الحقيقى وراء رغبته فى جعل نفسه الوصى الوحيد على فيليب.

سرت قشعريرة فى جسمها فتركت البرج وتوجهت الى المبنى الرئيسى ووقفت فى القاعة الكبيرة وراحت تجول بعينيها فى ارجائها. عزمت ان توليها عنايتها حالما تفرغ من تجهيز غرفة فيليب. ومع ان القاعة كانت تتطلب جهداً كبيراً لتصبح فى حالة مقبولة، الا ان اندريا كانت تعلم تماماً ماذا كان ينقصها وما الذى كان عليها ان تفعله لتضفى عليها جوا مريحا وجذاباً. توجهت الى المطبخ لتفتش على غاستون ووجدته جالساً يحتسى القهوة وعلى الطاولة امامه اكوام من الخضار والفاكهة بانتظار عودة كلوتيد.

كانت اندريا تجد غاستون صعب المراس ومشاكساً بالاضافة الى

جهله اللغة الانجليزية وكانت تعتقد فى سرها غالباً ما يتظاهر بعدم الفهم لمجرد ان يراقبها وهى تفتش عن الكلمات المناسبة باللغة الفرنسية.

استقبلها هذه المرة بعينين صافيتين لامكر فيهما ولا دهاء واشرق وجهه بابتسامه عريضة حين رآها.

«سوف يتساقط الثلج قريباً يا سيدتى.»

«آه كلا !».

صرخت اندريا بغيظ. ولكن غاستون بدا واثقاً مما قاله فعاد واكده قائلاً :

«بلى ! سوف يسقط الثلج وسوف يقطع الطريق الى القرية».

لم يفرحها قوله وغمرها شعور بالكآبة فلقد كانت تجد متعة فى الذهاب الى القرية سيراً على الاقدام ولطالما تخيلت نفسها بصحبة فيليب فى نزهة بين الحقول. وعدا ذلك كان المشوار الى القرية المتنفس الوحيد الذى تبتعد به عن القصر واهله. اما اذا قطعت الثلوج طريق القرية فعلا فستضطر للبقاء فى القصر وربما على امتداد ايام.

نظرت الى غاستون وقالت له :

«اريدك ان تشعل النار فى الموقد الموجود فى القاعة الكبيرة».

حملق غاستون فى وجهها وهز رأسه وكأنه اصيب فجأة بالصم ولم يعد يسمع شيئاً. فعادت اندريا وكررت طلبها. ولدهشتها العظيمة رأت غاستون يهز رأسه ولكن بعلامة الرفض هذه المرة وسمعته يقول :

«كلا يا سيدتى، هذا غير ممكن».

«بل ممكن لم ار فى حياتى موقداً اكبر من الوقد الموجود فى القاعة الكبيرة. واذا ما اوقدت النار فيه فسيبدو المكان اقل وحشة ».

وكان عليها ان تكرر ذلك القول مرتين ولكنها فى المرة الثانية استبدلت عبارة اقل وحشة، بعبارة اقل كآبة، على ان غاستون استمر يهز برأسه علامة الرفض واكتسى وجهه بتعبير غريب وكأنه وجد نفسه فجأة فى محنة عظيمة.

اعتقدت اندريا فى اول الامر ان غاستون كان يريد ان يتهرب من العمل الاضافى الذى كان ذلك سيجلبة عليه. رمته بنظرة حانقة ولم تملك الا ان ترى كميات الشحم التى تراكمت على جسمه وما لبثت ان خاطبته بنبرة آمرة قائلة :

«يمكنك ان تبدأ بتقطيع الحطب حالما تنتهى من شرب القهوة».

وبانتظار الحطب، اختارت اندريا ان تنظف بنفسها الموقد وتلمع البلاط حوله. وكان خيالها بدور وهى فى ذروة انهماكها فى هذا العمل حول الجو الدافئ الذى ستضفيه النار على القاعة. وما ان انتهت من عملها حتى اقبل غاستون حاملاً رزمة من الحطب وعلى وجهه علامات التذمر والاستذكار نظر اليها بغيظ وقال بالفرنسية :

«هذا لا يجوز. علينا اولاً ان ننظف القساطل من الهباب».

لم تفهم اندريا بالطبع شيئاً مما قاله وابتسمت له وقالت :

«لا عليك يا غستون. سوف ترى كم سيبدو المكان افضل بعدما تشعل النار».

هز غاستون كتفيه وكأنه استسلم لقدره المحتوم ووضع الحطب على الارض قرب الموقد. تناولت اندريا قطع الحطب وصفتها فى الموقد بترتيب ثم اضرمت النار فيها وهى تبتسم بفرح. وما كادت تبعد بضع خطوات حتى سمعت صوتاً غريباً ينبعث من الموقد الذى ما لبث ان انفجر مرسلاً دخاناً كثيفاً انتشر فى القاعة كلها، وغطى كل ما حوله بما فى ذلك اندريا نفسها وغاستون بطبقة كثيفة من الهباب.

«يا للجحيم !».

صرخت اندريا بغيظ وهى تتراجع الى الوراء لتتقى مزيداً من الهباب.

نظرت الى غاستون وكان قد اصبح اسود اللون من رأسه الى اخمص قدميه وتصورت نفسها وحالة شعرها ووجهها. وعندما رأت ابتسامه الشماتة على وجه غاستون لم تعد تتمالك اعصابها فجن جنونها وصرخت بشكل هستيرى.

«لا تقف هكذا ! تحرك وافعل شيئاً !».

وما كادت تتفوه بهذه الكلمات حتى سمعت بوق سيارة فى الخارج معلناً قدوم بعض الزوار. اسقط فى يدها ولم تعد تدرى كيف ستواجه بليز وهى فى تلك الحالة وما عساه ان يقول لزواره مبرراً استقبالهم فى قاعة سوداء كالفحم وزوجته على هذه الحالة.

نظر اليها غاستون وهز رأسه بتأسف ومرة اخرى تمتم بالفرنسية ما معناه بانه كان يجب ان تنظف القساطل اولاً.

اندفعت بعصبية باتجاه المؤدى الى الطابق العلوى لتلوذ بالفرار قبل وصول الزوار. ولكن ويا للأسف كان قد فات الاوان اذ انفتح الباب

فجأة وظهر فيه بليز بنفسه وكان برفقته صبية حسناء وفتى صغير. تسمرت اندريا فى مكانها. ها ان فيليب قد وصل اخيراً وبدون ان يعلن عن موعد قدومه.

التقت عينا الفتى ورفع اصبعه يشير إليها ويصرخ بصوت حاد:

«ما هذا؟».

ارتفع فى داخل اندريا انين صامت ورأت الغضب يحل محل الدهشة على وجه بليز وبهرها جمال رفيقته المميز. كان جسمها متناسقاً بغير طول مفرط. وبدت شديدة الاناقة فى ثياب بدت انها اختيرت بعناية وذوق.

حولت الصبية نظرها الى بليز وبشفتين ساخرتين قالت له :

«ألن تقدم الى زوجتك يا عزيزى ؟».

«بكل تأكيد».

اجابها بليز وهو يتقدم باتجاه اندريا بضع خطوات وملامحه جامدة كالصخرة :

«اسمحى لى ان اقدم لك سيمون دالتون، خالة فيليب».

اجبرت اندريا نفسها على الابتسام وهى تعى تماماً وضعها غير المؤاتى خاصة انها لم تكن فى حالة تسمح لها حتى بمصافحة سيمون.

«يؤسفنى ان يكون استقبالك على هذا النحو».

اتسعت ابتسامه سيمون، تلك الابتسامة، التى شعرت اندريا فى الحال انها لم تكن لها بل عليها، واجابت :

«يبدو ان بليز نسى ان يخبرك. ألم تصلك رسالتى يا عزيزتى ؟».

خنقت اندريا فى صدرها شهقة سخط. هل استلم بليز فعلا رسالة تخبره عن موعد وصولها واخفى الامر عنها ؟ الم يكن يدرك كم تحتاج تلك الزيارة من تحضير مسبق ؟ الم ير يعينيه كم صرفت من الوقت لتجهيز غرفة لفيليب ؟ شعرت برغبة فى البكاء ولكنها تمالكت اعصابها وحررت ذراعها من قبضة بليز وبصوت هادئ قالت :

«اجدنى مضطرة الى الاعتذار لكم جميعاً فلدى الكثير لاقوم به فى الحال».

«يبدو انك اهملت شيئاً مهماً يا عزيزتى ! لم تسلمى على ابن اخى قريبك الجديد».

استوقفها بليز بصوت لاذع وقع على نفسها وقع السياط.

علا فى داخلها انين صامت وحولت نظرها الى الفتى الذى وقف يراقب المشهد امامه. لاحظت اندريا انه لم يكن طفلاً جميلاً بالمعنى المألوف لدى الاطفال. كان نحيلا الى درجة الهزال شعره الاسود كهالة من الشوك حول وجهه الشاحب. اما عيناه المستديرتان، فكانت تنظران اليها بعداء سافر.

«فيليب».

قالت مرحبة وهى تفتح ذراعيها لتضمه اليها وتعتذر عن ضيافتها:

«ارجو ان لا يزعجك الهباب على ثيابى... ».

ولم تكمل اذ قاطعها فيليب بانتحابة عالية واسرع نحو سيمون

ودفن رأسه فى ثيابها وصرخ كأنه يحتمى من الشيطان :

«يا خالتى !».

عضت اندريا على شفتيها ولم تجرؤ ان تنظر الى بليز لئلا ترى ما ارتسم على وجهه من تعبير هى نفسها لم تكن تتوقع مثل ذلك اللقاء تمتمت شيئاً عن رغبتها فى الانسحاب واسرعت تصعد الدرج الى غرفتها لتغتسل.

بعدها قال لها بليز:

«ان السيدة بريسون تنقل الان ثيابك من غرفتك لاستقبال سيمون».

«آه».

قالت كمن وجد هذا التصرف الحل الوحيد المعقول ثم اردفت :

«وانا، الى اى غرفة سأنتقل ؟».

«الى غرفتى».

اصبحت فجأة كالمشلولة. قالت بصوت غير مصدق:

«انك تمزح !».

«غريب ومثير هذا الامر. انا لا استطع ان اتقبل نفورك منى بعد ان اعتقدت باننى اعتدت على هذه البلية التى اصابتنى. فلقد مضى وقت كاف ليكسبنى مناعة ضد هذه المشاعر ولكنك يا ملاكى قد جعلتنى اكتشف العكس تماماً. واود ان يبقى ذلك سراً بيننا مادامت سيمون موجودة معنا. وعليك ان تشكرى ربك لاننى لن اطلب المزيد منك».

«كنت على علم بان هذا سيحدث ! ».

اجابته بصوت فيه تحد وتابعت :

«لقد كنت على علم بموعد وصول سيمون مع فيليب ولكنك لم تخبرنى لكى تواجهنى بالامر الواقع».

«لا تعذبى نفسك اؤكد لك باننى لم اخطط بهذا الشكل الجهنمى الذى تتصورينه ذكرت سيمون بالفعل انها سترافق فيليب وتوصله بنفسها ولكننى لم اصدقها واعتقدت ان الامر مجرد كلام...».

توقف عن الكلام ونظر اليها بدهشة ثم قال :

لاتنسى ان هناك ضيوفاً بانتظارك وبان فيليب لم ير غرفته بعد».

لم تكن مرتاحة الاعصاب وهى تهبط الدرج بل فى حال من التوتر والاضطراب.

اختلست نظرة الى سيمون وضايقتها نظرة وجهها وهى تجول بعينيها فى المكان. تملك اندريا شعور مفاجئ بالكبرياء وشعرت بدافع عفوى يدفعها الى حماية ما يخصها. رفعت اندريا رأسها باعتداد وشموخ وسألتها بتهذيب بالغ :

«هل هذه زيارتك الاولى الى سان جان دى روش يا آنسة ؟».

لمعت العينان المائلتان بنظرة عابثة لم تخف على اندريا وبدون ان يرف لها جفن اجابت :

«يسعدنى ان اقول انها الاولى... انها ليست تماماً البيئة التى تستهوينى او التى يمكن ان يقع عليها اختيارى بشكل تلقائى. ولكن ما

لنا ولهذه الرسميات. انا اسمى سيمون وانت اسمك، آه... ماذا قال بليز ؟ آه... اندريا».

اسرعت اندريا توافقها فى الرأى بالرغم انها كانت تشعر فى قرارة نفسها انهما لا يمكن ان تصبحا صديقتين. وهى على اى حال لم تكن ترتاح لها او تأنس لوجودها. وفى محاولة يائسة لكسر الجمود حولت اندريا نظرها الى فيليب وقالت بمودة وتحبب :

«اظن ان فيليب يريد ان يرى غرفته».

حملق فيليب فيها وارتسمت على وجهه علامات التمرد والعصيان وقال:

«لم اكمل شرب الحليب بعد».

اجابته اندريا برقة :

«خذ ما يلزمك من الوقت».

وضع الكوب من يده بغيظ مريقاً بعض الحليب على الطاولة ثم قال وهو ينزلق عن كرسيه :

«لا اريد ان اشرب المزيد... الا تأتين انت ايضاً يا خالتى سيمون؟».

هزت سيموت كتفيها ونهضت من مقعدها ورمت عقب سيجارتها فى الموقد واجابته مبتسمة :

«كما تريد يا صغيرى».

والتفتت الى اندريا والابتسامة اياها على شفتيها وقالت :

«هل تمانعين ؟ انا لا اريد ان ابدو متطفلة».

«كلا بالطبع، فعلى الرحب والسعة».

اجابتها اندريا بصوت خشن. لم تكن الامور تسير كما خططت لها ووجدت انه من المؤسف حقا ان تسمح لسيمون باثارتها. كانت اندريا قد رسمت فى رأسها صورة لفيليب وهو يستعرض تلك الغرفة التى صرفت الكثير من جهدها ومن وقتها فى تجهيزها على نحو يحظى باعجابه ولم يخطر فى بالها بانها ستريه اياها امام جمهور من المتفرجين وعلى الاخص امام شخص مثل سيمون.

كان غاستون قد زيت مفصلات الباب ولذلك لم يسمع له اى صرير عندما فتحته اندريا التى مدت يدها تجاه فيليب بحركة ودية وقالت له بلهجة مسرحية :

«اهلا بك فى مملكتك ايها السيد الصغير».

تجاهل فيليب اليد الممدوة وادخل يديه فى جيوبه واجتاز العتبة.

وقف فيليب على الباب وراح يجول بعينيه فى ارجاء الغرفة. كان رأسه الى الوراء ووجهه خالياً من كل تعبير وكأنه قناع غير مناسب لذلك الجسم الصغير. اخيراً نظر الى اندريا وسألها :

«هل هناك شئ اخر يا سيدتى ؟».

تقدمته اندريا على الدرج المؤدى ال البرج بصمت وكانه لا حول لها ولا قوة. وكانت سيمون وراءهما.

مرة اخرى وقف فيليب ينظر حوله بهدوء وصمت. رأت اندريا العينين السوداوين المستديرتين تجولان فى انحاء الغرفة.

شئ ما تحرك فى وجهه محطماً ذلك الجمود والتحفظ الذى حرص على الاحتفاظ بهما وكأنه ليس طفلاً صغيراً. اخذ نفساً عميقاً ثم نظر الى اندريا وقال بتردد :

«هل قمت بكل ذلك من اجلى يا سيدتى ؟».

شعرت اندريا بغصة فى صدرها لم تعرف مصدرها لكنها اجابته ببطء وبمنتهى الجدية :

«كله من اجلك انت يا فيليب».

التفت اليها وكانه يراها للمرة الاولى وعلت شفتيه ابتسامه سرعان ما اختفت عندما جاء صوت سيمون من قرب الباب قائلاً :

«انها بعيدة عن باقى غرف القصر يا صغيرى. هل انت متأكد انك لن تخاف هنا وحدك ؟».

اكتست ملامحه فى الحال بتلك العلامات المقلقة من الكآبة والجمود ورفع كتفيه بارتباك ثم اندفع نحو سيمون ودفن رأسه فى ثوبها كما فعل سابقاً.

نظرت سيمون الى اندريبا وقالت لها بهدوء :

«انه طفل عصبى المزاج».

«فقط عندما يذكره احد بذلك». قالت اندريا فى نفسها وهى تنظر الى الرأس الاسود الصغير.

شعرت اندريا بالوضع الغريب عندما لاحظت وجود مخدتين على السرير الكبير. ولكن الم يؤكد لهل بليز بنفسه باه سيمضى ليلته على

الاريكة قرب النافذة ؟ كانت اندريا قد اكتشفت ان الحياة اقل تعقيداً عندما تكون بعيدة عنه وها هو القدر الان يرميها فى طريقه كلما حاولت الابتعاد وشعورها بانه هو الاخر كان مجبراً على هذا التدبير وبانه لم يختره طوعاً ازعجها كثيراً وزاد فى تعاستها.

وجدت اندريا سيمون فى غرفة الطعام وكانت رائحة عطرها تملأ المكان وبدا فيليب الذى جلس بقربها على الاريكة صغيراً ومنطقياً وكان نظره منصباً عليها وهى تتكلم وتبتسم وكأنه متعبد فى هيكل.

كان الحديث حول المائدة عاماً واستأثر موضوع التعاونية الزراعية بجزء كبير منه. وبدت سيمون عالمة بكل التفاصيل وهذا ما ازعج اندريا التى وجدت بانشغالها فى امور البيت عذراً مقبولاً لابتعادها عن كل تلك الشؤن. وعلى اى حال، كيف كان لها ان تعرف كل تلك الامور ان لم يطلعها عليها بليز بنفسه وهى التى كانت تتعمد الابتعاد عن طريقه.

اخذت اندريا على نفسها محاولة جعل فيليب يرتاح بعض الشئ وينفتح لها ولكن محاولاتها المتعددة ذلك المساء باءت جميعها بالفشل وبدا فيليب تعباً وغير راغب فى الحديث.

لم تتابع اندريا الحديث الذى كان يدور بين بليز وسيمون لانشغالها بفيليب ولكن استوقفتها فجأة جملة نطقها بليز مقاطعاً سيمون التى كانت تقول وكأنها تجادل وتبدى اعتراضاً :

«كيف تقول هذا.. ؟ لقد كانت بيل ريفيير..».

فقاطعها بليز يقول بنبرة قاطعة :

«بيل ريفيير لم تعد موجودة. اختفت وزالت من الوجود».

وبدا لاندريا بان كلمات سيمون احيت فى نفس بليز ذكريات مؤلمة اذ ما لبث ان قال :

«ارجوك ان لا تقارنى هذا مع بيل ريفيير».

عندما رمته سيمون بنظرة حانقة ووضعت الشوكة من يدها وقالت انما بصوت فيه اعتدال :

«حسناً، كما تريد».

ولكن اندريا شعرت بشكل لا يقبل الجدل بأن سيمون لم تكن مستاءة ابدا من رد الفعل التى اثارتها كلماتها بل على العكس بدت وكانها سجلت انتصاراً.

حاول فيليب ان يخفى تثاؤبه ولكنه لم ينجح، فسلطان النوم كان اقوى منه فنهضت اندريا من مكانها وقالت :

«يا له من طفل مسكين. انه يكاد يغفو على كرسيه. سأضعه فى فراشه لو سمحتما».

«آه... دعينى اقوم بهذا العمل عنك».

قالت سيمون وهى تنهض وبدت عيناها كبيرتين فى وجهها وارتسم على شفتيها المتدليتين اشمئزاز فيه رغبة مكبوتة واضافت :

«قد تكون هذه المرة الاخيرة، التى اضعه فيها فى فراشة واروى له قصة قبل النوم. اما انت فيمكنك ان تستمتعى بكل طفولته المتبقية. لا تحرمينى من هذا يا اندريا ارجوك !».

بدت اندريا وكأنها تستكثر عليها بضع لحظات اخيرة مع ابن شقيقتها. وكان هذا صحيحا الى حد ما فقد كانت سيمون ستحرم من الطفل. تمتمت اندريا موافقة ثم رأت فيليب بطرف عينها يسير بجانب خالته وكأنه يحتمى بها. وعندما وصلا الى الباب استدارت سيمون ورمت اندريا بنظرة باسمة من عينيها المائلتين.

تملك اندريا شعور بالفشل والاحباط وما ان جلست فى كرسيها حتى سمعت لعنة تخرج من بين شفتى بليز الذى قال لها معنفاً :

«لماذا سمحت لها بالذات؟ كان عليك ان تضعى فيليب فى فراشه بنفسك».

كادت الدموع تنهمر من عينى اندريا وقالت :

«يمكنك ان تتصرف بكرم. الاطفال يحبون هذه الطقوس قبل النوم عادة وعلى اى حال قد يساعده ذلك على النوم الهادئ...».

لم يعلق بليز بشئ ولكنها رأت وجهه متجهماً وعابساً.

نهضت اندريا مستأذنة وقالت :

«اريد ان آوى الى فراشى لو سمحت. كان يوماً شاقاً على الجميع».

نهض بليز ايضاً وانحنى لها بسخرية وقال :

«رافقتك السلامة يا سيدتى. لا تخافى فلن ازعجك اطلاقاً، فكما ترين لدى رفيق هذا المساء».

عضت اندريا على شفتيها بغيظ وقالت :

«نعم هناك سيمون. فلا شك ان لديكما ما تتحدثان عنه، ذكريات

ماضية، ومشاريع جديدة».

لم تدر اى شيطان جعلها تتفوه بهذه الكلمات لانها ما ان انتهت حتى رأته يضع الكوب من يده ببطء وتأمل ويقول بصوت كالفحيح :

«ماذا تعنين بحق الشيطان ؟».

«لا اعنى شيئاً، ولكن يبدو لى انكما تعرفان بعضكما منذ وقت طويل ولابد ان هناك ذكريات مشتركة تجمعكما. بيل ريفيير مثلاً».

«ذكريات مؤلمة ولا احب ان استرجعها... ليس لدى ما ابحثه مع سيمون يا عزيزتى».

لاذت اندريا بفراشها تطلب النوم الذى جفا مقلتيها تلك الليلة وراحت تتقلب من جنب الى جنب وهى تشعر بصداع شديد وبألم عميق فى نفسها. حاولت عبثاً ان تطرد الصور والهواجس التى شغلت بالها.

وبرغم الدفء المنبعث من الغطاء فى سريرها اعترت اندريا رجفة شديدة عندما سمعت الباب يفتح بهدوء. اغمضت عينيها وظلت ساكنة لا تأتى بحركة وقلبها يقفز فى صدرها مع كل خطوة من خطوات بليز التى كانت تروح وتجئ فى الغرفة. سمعت صرير احدى الخزائن فقدرت انه يفتش عن اغطية ثم اقتربت خطواته منها فحبست انفاسها. مد رأسه فوقها وقال :

«لا تجزعى يا سيدتى لا اريد سوى مخدة. ولا احسبك تضنين على بمثل هذا الطلب !».

٧- هل فات الأوان؟

عندما استيقظت اندريا صباح اليوم التالى استبد بها شعور غريب بوجود خطأ ما اذ خيم على المكان سكون غريب وكانت اشعة الضوء تخترق الستائر وتضفى على الغرفة نوراً باهتاً.

قفزت من السرير الى النافذة وازاحت الستائر. كان كل شئ ابيض والثلج مازال يتساقط من سماء رمادية تحمل فى تجهمها وعداً بمزيد من الثلج.

نظرت الى ساعتها واكتشفت ان موعد الفطور كان شيكاً. كادت تتمزق من الغيظ فقد كان عليها ان تتحمل وجود سيمون و ان تمضى ليالى اخرى فى غرفة بليز.

ظنت لاول وهلة عندما دخلت غرفة الطعام ان لا احد فيها لكنها ما لبثت ان رأت فيليب راكعاً على حالة النافذة على الزجاج وجسمه كله ينطق بالاثارة والبهجة. التفت الى اندريا وصرخ وكأنه يرى الثلج لاول مرة فى حياته :

«ثلج !».

ابتسمت له وحاولت جاهدة برغم هواجسها وافكارها السوداء، ان تشاركه حماسة وقالت :

«اليس جميلا ؟ سنخوض معركة بكرات من الثلج بعد الفطور وسأرى اذا كان باستطاعة غاستون ان يصنع لك مزلجة من الخشب».

بدا فيليب متردداً فهو غريب عن اللعب فى الثلج ولكنه ابتسم لها بدوره وسمح لها بان تقوده الى المائدة فى اللحظة ذاتها دخلت كلوتيلد الغرفة تحمل طعام الفطور.

كان الطقس بالنسبة الى اندريا بمثابة فاجعة حلت بها وكانت تعلم ان غاستون سوف يضطر للذهاب الى القرية سيراً على الاقدام لاحضار الخبز، فجميع الطرق كانت مغلقة. وكأن مدام بريسون قرأت افكارها اذ قالت وكأنها تردد كلاماً سمعته:

«يجب ان يكون الذاهب الى القرية حذراً جداً فى هذا الطقس». وبدا لاندريا ان السيدة بريسون كانت تقنعها بعدم خوض هذه التجربة!

فتح الباب مرة ثانية ودخل بليز وفى اعقابه ريح باردة. وكانت ندف الثلج تغطى شعره وكتفيه. فنزع معطفه وعلقه على كرسى امام النار قبل ان يجلس الى المائدة معهما.

حيا اندريا بايماءة وجيزة من رأسه وعندما مر بقرب فيليب ربت رأسه بتحبب ومداعبة وقال له :

«اسعدت صباحاً يا ابن اخى».

وجدت اندريا حركته تلك رقيقة وصادقة وكانت فى عرفها من النوع الذى يثير عند سائر الاطفال رد فعل ضاحك. ولكن لم يصدر

شئ من ذلك عن فيليب. لم تصدق اندريا عينيها فلقد كان فى عينى فيليب رعب حقيقى وكأن انامل عمه قد لسعته. ولاحظت ايضاً ان بليز هو الاخر قد لاحظ رد الفعل اذ انكمش فى مكانه وبدت الندبة على خده الاسمر الذى لفحته الشمس شديدة البروز.

«لماذا يا فيليب».

سأله بالفرنسية ثم اضاف وهو يرفع يده الى الندبة.

«هل هذا ما يخيفك ؟».

تسمرت عينا فيليب على مفرش المائدة وتحول وجهه الى لون قرمزى وانتفض متشنجاً وتمتم شيئاً بالفرنسية لم تفهم اندريا منه شيئاً. وقف بليز برهة يراقب الرأس المنحنى واكتست ملامحه بتلك المسحة من الجمود وخطا نحو كرسيه وجلس ثم تناول ابريق القهوة وسكب لنفسه فنجاناً.

ابتدأت اندريا تثرثر لمجرد ان تكسر الصمت المخيم على الغرفة.

روت لفيليب مغامراتها فى الثلج فى طفولتها واخبرته عن تمثال الرجل الذى نحتته هى وكلير فى الثلج وعن غضب عمها ماكس عندما اكتشف انها لفتا عنقه باحسن شال عنده. كان جو التوتر الذى ساد الغرفة ملموساً اندريا بتبديده برغم الروايات والنوادر التى سردتها.

وكأن سيمون اختارت عن سابق تصور وتصميم ان تدخل الغرفة وسط هذا الجو المشحون. جالت بعينيها فى ارجاء الغرفة وجلست وهى تبتسم وتعتذر عن تأخرها. كان مستحيلا ان تلاحظ سيمون ذلك الجو الثقيل الذى سيطر على الغرفة وكان مستحيلا كذلك الا تعلق

عليه بشئ اذ ما لبثت ان قالت :

«ما القصة ؟».

وتناولت كعكة وراحت تأكلها وتنقل نظرها من وجه فيليب المحتقن الى وجه عمه الذى ارتدى تعبيراً جامداً وساخراً فى آن. اشتد احمرار وجه فيليب وراحت اصابعه بشكل آلى وتعبث بعصبية ظاهرة بالكعكة امامه التى تحولت الى كومة فتات فى طبقة :

«يا الهى !».

صرخت سيمون وهى ترفع يدها الى فمها بألم مصطنع وتابعت.

«أوه يا بليز... اننى آسفة. لابد انه قال شيئاً عن وجهك. فيليب يا صغيرى، لم يكن هذا لطيفا منك ولقد حذرتك بان الانسان عليه ان يخفى شعوره ويجب ان تتعلم ذلك».

قال بليز بصوت قاطع :

«الطفل غير ملام. لماذا نتوقع منه ان ينجح حيث فشل الكبار ؟».

ولكن سيمون لم تشأ ان تفهم بالاشارة والتلميح فنظرت الى فيليب وراحت توجه اليه سيلا من اللوم والانتقاد مما ازعج اندريا وتمنت لو تسكتها لانها بدت لها انها غير مدركة لحجم الاساءة التى كانت توجهها للجميع بدون استثناء.

لم تستغرب اندريا عندما نهض بليز بعد دقائق معدودة وخرج من الغرفة واغلق الباب وراءه بعنف.

استرخت سيمون فى مقعدها واطلقت تنهيدة مصطنعة بدون ان

توجه كلامها الى احد على وجه الخصوص :

«يا للمصيبة ! كنت اظن ان بليز قد اعتد على ما اصابه».

لكن اندريا لم تكن قادرة على الاجابة ففضلت ان تأخذ الصبى فى نزهة الى الخارج.

لم يكن فيليب بحاجة الى اكثر من دقائق معدودة ليكتشف بهجة الثلج.

واستقلت اندريا اول كرة قذفها بها بسرور بالغ وكأنها هدية ثمينة ولأول مرة منذ وصوله لاحظت اندريا انه ابتدأ يتكلم ويلعب كما يتكلم الاطفال فى عمره ويلعبون.

سمعت اندريا فى وسط الهرج الذى رافق معركة الثلج قرعاً خفيفاً صادراً عن مكان عال فرفعت بصرها لتتبين مصدر الصوت ورأت الان فى النافذة العليا. لوحت له بيدها ودعته للنزول والمشاركة فى اللعب وفى اقل من لمح البصر اصبح الان الذى لم يصدق انه تلقى مثل هذه الدعوة، فى وسط المعمعة. على ان اندريا تذكرت متأخرة تحذير بليز لها ولكن لم يكن بوسعها ان تفعل اى شئ.

«من هذا ؟».

سألها الان وهو ينظر الى فيليب ويمد له يداً مصافحة.

«انه ابن شقيق زوجى وتحت وصايته وسيقيم معنا».

«انه فتى محظوظ فهذا المكان هو الجنة بعينها للاطفال».

بعد فترة قصيرة لاحظت اندريا ان فيليب بدا مجهداً، فهو لم يعتد مثل هذه الرياضة الشاقة، اقترحت ان يدخلوا الى الاسطبل علهم

يجدون غاستون. ظنت اندريا فى البدء ان فيليب قد يخاف من الجياد ولكنها رأته يقبل عليها بشجاعة ويطعمها.

وجدت اندريا غاستون فى الورشة منهمكاً فى طلاء مزلجة قديمة الطراز، فاطلقت اندريا شهقة فرح. اما غاستون فاستمرت انامله تعمل برشاقة ومهارة ونظر الى اندريا بغبطة وسرور. استطاعت ان تفهم منه ان المزلجة كانت لبليز ولاخيه فيما مضى.

سمعت اندريا شهقة مكتوبة صادرة عن شخص يقف بقربها. كان فيليب قد وصل لتوه وما ان وقع نظره على المزلجة حتى صرخ.

«اهى لى ؟».

«انها لك».

اخذ فيليب نفساً عميقاً وشعرت اندريا بيد صغيرة تندس فى يدها.

«لقد وجدت طريقك الى قلب فيليب يا اندريا».

جاءها صوت سيمون المتهكم. ابتسمت لها اندريا مكرهة وهى تحاول ان تكتم غيظها.

نظرت سيمون حولها مبتسمة وقالت :

«يا له من مشهد عائلى رائع».

ثم التفتت الى الان وتابعت :

«لا اذكر اننى رأيتك من قبل. الا تقومين بواجب التقديم يا اندريا؟».

ولم تنتظر رد فعل اندريا بل رفعت يدها الى فمها وكأنها تتذكر شيئاً وهتفت :

«آه لقد نسيت، جئت لادعو الجميع الى الدخول لتناول شراب الشوكولا. سيبرد اذا لم ندخل فى الحال».

وما ان انهت كلامها حتى قفزت من مكانها ودست ذراعها تحت ذراع الان ومالت عليه تقول بدلع :

«يجب ان تأتى انت ايضا ايها السيد. فشراب الشوكولا من يد كلوتيلد شئ لا يفوت. اؤكد لك ذلك».

كانت تتحدث اليه بالانجليزية بلكنة فرنسية مستعينة ببعض كلمات فرنسية.

وما ان انهت كلامها حتى خرجت من الورشة وذراعها فى ذراع الان مخلفة اندريا وفيليب وراءهما.

ولم تستغرب اندريا عندما نهض الان بعد قليل معلناً رغبته فى الانصراف ولكن ما ادهشها فعلا كان حيبة الامل التى ارتسمت على وجه فيليب الذى ابدى اعتراضه على انصراف الان المبكر بقوله :

«ولكنك قلت بانك ستعلمنى ركوب المزلجة».

«سوف اعلمك».

اجابة الان بروح طيبة ثم اضاف :

«انما ليس اليوم لان الطلاء لم يجف بعد».

وعندما رأى الكآبة تغلف وجه فيليب قال له مطمئناً :

«لا تقلق يا صغيرى فالثلج باق لبضعة ايام».

وخفق قلب اندريا عند سماعها تلك الكلمات فمعناها ان سيمون

باقية معهم طوال تلك المدة. وكانت مازالت غارقة فى تفكير عميق عندما عادت الى الغرفة بعد ان شيعت الان للباب الخارجى. طالعها وجه بليز المتجهم وما ان جلست فى مقعدها حتى قال بجفاء واضح :

«اظن بانني عبرت عن عدم رغبتى فى استقباله كضيف فى بيتى. يكفى اننى قبلته كنزيل فى القصر».

انتفضت اندريا بكبرياء وارادت ان تجيبه بما يناسب ذلك الكلام لكن سيمون لم تسمح لها بذلك وأسرعت تقول بدهاء وهى تنقل بصرها من وجه بليز المتهجم الى وجه اندريا الذى علته الحمرة.

«يا الهى لقد تصرفت بحماقة. كان يجب ان تحذرينى يا اندريا. وانت يا بليز، لا توجه اللوم الى زوجتك فأنا من دعا هذا الشاب الى تناول شراب الشوكولا».

توقفت قليلا ثم التفتت الى اندريا وقالت وكأنها تنفث سماً.

«لا الومك ابدا على تعلقك به، انه شاب ساحر».

«لست متعلقة به».

مرت ثلاثة ايام وكانها ثلاث سنوات. وكانت اندريا تفتح عينيها كل صباح على دنيا يكسوها البياض رغم ابتهالاتها الليلية لتحصل معجزة ما تذيب الثلج اثناء الليل.

وكان فيليب يسرع بعد كل نزهة الى سيمون وكله شوق ثم يحدثها عما قاما به وكان دائما يقدم لها شيئاً من ريشة طائر الى صخرة ذات شكل غريب الى زهرة غير عادية الى ما هنالك.

على انه لم يكن يقترب من بليز وكان يخيم على المكان جو ثقيل كما التقيا. وعلى الغداء، كان فيليب يجلس مقوس الظهر وعيناه مسمرتان على الطبق امامه. كان من الممكن ان تفسر اندريا تصرف فيليب ازاء بليز على انه نفور من الرجال بشكل عام لو لم يكن فيليب يرتاح الى الان ويسعى اليه كلما سنحت الفرصة ويستمع الى احاديثه عن القائد فيرسنجتوركس والحرب التى خاضها ضد الرومان وكذلك الى غاستون الذى غالباً ما كان يساعده فى اعماله وينقل معه الحطب.

بدا لاندريا ان الشئ الوحيد الذى يروق لسيمون ويستهويها هو الانفراد بالحديث مع بليز باللغة الفرنسية وكأنها تتعمد اقصاء اندريا عن الحديث. على ان بليز لم يكن يبادلها حماسها فى الحديث وغالباً ما يكتفى باعطائها اجابات مقتضبة.

وبما ان سيمون كانت قد درجت على تناول وجبة الفطور فى غرفتها كل صباح وعلى ملازمة الغرفة حتى الظهر، لم تكن اندريا ذالك الصباح بالذات مهيأة نفسياً للمشهد الذى طالعها عندما دخلت غرفة الطعام.

كان فيليب مكوراً فى المقعد قرب النافذة وكانه يتقى هجوماً وشيكاً عينيه رعب حقيقى، وكان بليز يقف فوقه والغضب يسطع من عينيه.

وعندما رأها فيليب اطلق صرخة مكتومة واندفع نحوها يحتمى بها وهو ينتحب. التفت اليها بليز ويداه على خصره ثم قال بنبرة فيها تهكم واستهزاء :

«يا لها من صدفة. فابن اخى يا سيدتى يجد فيك ملاذاً على ما

يبدو... وظهورك فى الوقت المناسب وفر عليه الكثير».

«ما الحكاية ؟».

سألت اندريا وهى تضع يديها حول كتفى فيليب المرتجفتين.

«لقد اخذ بعض الادوات من غاستون ونسى ان يعيدها له وهو ايضا لا يعرف مكانها وغاستون الان بحاجة اليها».

التفتت اندريا الى فيليب ورفعت وجهه بيدها وقالت.

«انه عمل طائش يا فيليب. يجب على الانسان ان يعيد ما استعاره الى صاحبه. والان اين الادوات ؟ سنعيدها معاً الى غاستون».

«انها ليست معى».

«اين هى اذن ؟».

«لقد اعدتها اليه. لابد ان غاستون يكذب».

«هناك كاذب واحد فى هذه الغرفة».

قاطعة بليز بنبرة جافة.

«ارجوك».

قالت اندريا وهى تتجه نحوه وتضع يدها على ذراعه ثم تابعت.

«لن يفيد هذا التصرف فى شئ».

«وما العمل اذن ؟ هل تظنين انه بامكانك اقناعه بقول الحقيقة ؟ حاولت انا ذلك ولكننى لم اجد نتيجة واذا كانت لديك القدرة تكونين قد اسديت خدمة لكل منا».

هز كيان اندريا انين صامت وركعت على الارض قرب فيليب وسألته:

«الم تستعر الادوات من غاستون ؟».

«اردت ان انحت تمثالاً فى الثلج للقائد فيرسنجتوركس».

«حسناً وبعدها ماذا فعلت ؟ هل تركت الادوات فى الثلج ؟».

«كلا نبهنى غاستون الى ضرورة الاعتناء بالادوات، واعدتها اليه عندما انتهت من نحت التمثال».

«اذن يجب ان تكون الادوات هناك عنده».

قالت اندريا بمرح مفتعل ثم اضافت :

«ربما لم تضعها فى مكانها».

«لقد قمت وغاستون بتفتيش دقيق».

اجابها بليز واضاف :

«لم نجد للادوات اى اثر. والحقيقة ان فيليب ربما تركها فى الثلج وهو يخاف ان يعترف».

علا الاحمرار وجه فيليب فجأة وبصوت حاد وثاقب صرخ :

«انا لست جباناً وانا لا اخاف. انت هو الجبان يا ذا الندبة. ولقد تركت ابى يموت وانا اكرهك».

واندفع من بين يدى اندريا التى حاولت ان توقفه وصفق الباب وراءه.

نظرت اندريا الى بليز وكان وجهه شاحباً والندبة اشد احمراراً من

عادتها. وعندما رأى التساؤل فى عينيها قال :

«وماذا تريدين ان اقول ؟ باليتنى استطيع ان ادفع هذه التهمة عن نفسى فاخى مات فعلا وانا لم استطع انقاذه واذا رغب ابنه ان يدمغنى بالجبن فهذا شأنه ويصبح على فى هذا الحالة ان اعيش مع هذا اللقب ومع هذا... !».

ورفع يده الى خده المشوه. اسرعت اندريا تقول :

«فيليب يقول بانك تركت اباه يموت، وانت تقول بانك لم تستطع ان تنقذه وبين الروايتين فرق شاسع».

«الفرق يكمن فى التعبير. الواقع ان جان بول مات وهذه هى الحقيقة».

«كيف حدث كل ذلك يا بليز؟ موت اخيك، الجرح فى وجهك وكل شئ ؟».

سألته بصوت حاد وظنت اندريا بأنه سيتجاهل اسئلتها ويظل قابعاً فى ذلك الجحيم الخاص الذى اقامه حول نفسه، لكنه وبعد فترة صمت تنهد فى حزن وضاقت عيناه وكأنه يراها لاول مرة وقال :

«قضى جان بول فى الحريق الذى التهم بيل ريفيير. الله وحده يعلم لماذا ظن بول ان فيليب كان فى البيت وحده عندما شب الحريق واندفع كالمجنون برغم محاولاتى ومحاولات العديد من سواى منعه. كان هائجاً وكأنه فقد صوابه ورأيته بعينى يقتحم النيران ورحت اصرخ طالباً اليه العودة وانا على يقين بانه سمعنى ولكنه لم يأبه وتابع اندفاعه وفجأة سمعنا دوياً كالانفجار وفقدت الوعى. وعندما عدت الى وعى كان عدد

من الفلاحين فى المزرعة يحملوننى من بين الحطام ورأيت وجوهم من حولى ثم قالوا لى بعدها بانهم لم يجدوا اى اثر لأخى».

ادار لها ظهره واتجه صوب النافذة وسرح نظره الى البعيد وبعد فترة من الصمت قال :

«كان جان بول محبوباً من الجميع وفيليب بالذات لم يستطع ان يفهم لماذا مات والده وبقيت انا حياً ولطالما طرحت انا هذا السؤال ايضاً. استطيع ان افهم كذلك لماذا ينكمش فيليب على نفسه كلما رآنى فوجهى يذكره بوالده وكيف مات».

«ولكنه كان طفلا رضيعاً آنذاك».

«هذا صحيح... يمكن لاى انسان ان يزرع اى شئ فى ذهن طفل صغير».

اعترتها رجفة شديدة وشعرت برغبة فى ان تسأله، وماذا عن خطيبتك السابقة».

لكن الكلمات ماتت بين شفتيها. كان فى ذهنها اسئلة اخرى ملحة فاسرعت تقول قبل ان تتخلى عنها شجاعتها :

«يجب ان لا تلوم نفسك. فلقد قمت بكل ما تستطيع».

«هذا ما حاولت جاهدا ان افعله. لكنه مغاير للحقيقة. كان بوسعى ان امنع وقوع الحادث كله».

هزت اندريا رأسها بحيرة وارتباك ولم تكن تعرف الى ماذا كان يشير، الى موت اخيه ام الى الحريق الذى التهم بيل ريفيير.

اقتربت منه ووضعت يديها على ذراعه وجعلته ينظر اليها. كانت

نظرته جامدة وحول فمه علامات حزن دقيق واخيراً قال :

«لا تزعجى نفسك من اجلى يا عزيزتى. واحتفظى بطاقتك واحسانك لقضايا اكثر استحقاقاً من شخصى».

«انها ليست مسألة احسان. كيف يمكننى ان لا اهتم فانا انسانة ولدى مشاعر واحاسيس. وان كنت لا تحسبنى اكثر من حجر شطرنج بين يديك تتقله كيفما احببت فى هذه اللعبة الرهيبة بينك وبين ضميرك. انا لست آلة صماء ولن اتحول الى آله اذا رغبت انت ذلك».

قالت هذا بصوت مرتجف وعينين دامعتين ولم تدر ماذا دهاها.

ازعجتها يداها المرتجفتان وهى تتناول فنجان القهوة مريقة بعض محتوياته على المفرش الناصع البياض وبنبرة حادة لا مبرر لها سألت السيدة بريسون عن مكان فيليب. نظرت اليها مدبرة المنزل بدهشة ولكنها اجابتها بصوت هادئ بانها رأته يتجه الى بيت الان قرب البوابة واضافت مطمئنة قبل ان تتصرف :

«لا تخافى يا سيدتى، فان الان سيطعمه جيداً».

لم يكن من السهل على اندريا ان تنهى وجبه الطعام تلك وهى جالسة قبالة هذا الرجل الذى ايقظ فى نفسها كل تلك المشاعر والاحاسيس. اخافتها عواطفها وادهشتها وخشيت ان تكون قد وفرت له فرصة اخرى ليعذبها بقسوة كما فعل ليلة زواجها. وتحول طعم الكعك الى طعم التبن وفقدت القهوة مذاقها اللذيذ وهى تسترجع فى ذاكرتها ذلك الذل الذى رأته على يديه. على انها شعرت فيه هو الاخر تغييراً من نوع ما.

«استرخى يا عزيزتى».

جاءها صوت بليز الساخر واضطربت مريقة مزيدا من القهوة.

«اعدك باننى لن أثير أية مناقشات بيننا ونحن حول المائدة. افضل الانتظار الى وقت انسب حين لا يعود باستطاعة احد ان يقطع علينا الحوار».

وكان صوته يحمل وعوداً ومعانى.

«لم... اعنى اننى لم...».

ولم تكمل واصطبغ وجهها باللون الاحمر وزاد ارتباكها.

«مسكينة اندريا لن يكون من الانصاف فى شئ ان اجعلك تتعذبين على هذا النحو. والان على ان اذهب فعندى اجتماع فى الصباح واخر بعد الظهر ولذلك لن احضر على الغداء ولكننى سأعود قبل موعد العشاء».

وجدت نفسها اخيراً فى الغرفة وحدها. انهارت فوق مقعدها وحاولت ان تجمع افكارها. طلب منها ان تذكره وتفكر به ذاك النهار... وهل هى تستطيع ان تفعل غير ذلك ؟ ستكون سعيدة جداً ان هى استطاعت ان تحول فكرها عنه ولو لبرهة واحدة. وبرغم تلك الينابيع من المشاعر التى فجرها فى داخلها لم تغب عن ذهنها المشكلات التى كانت عليها ان تواجهها. كان فيليب اولى تلك المشاكل.

كانت تشعر براحة سرعان ما عرفت مصدرها. فلجوء فيليب الى الان وليس الى سيمون امر افرحها.

كان على اندريا ان تحضر فيليب من عند الان، فبقاؤه معه طوال النهار من شأنه ان يصرفه عن مسؤولياته وهذا امر لم تكن اندريا لتسمح به.

وكانت وهى فى طريقها اليه قد رسمت برنامج النهار فى رأسها. كانت عازمة على ان لا تأتى اطلاقاً على ذكر ما حدث ذاك الصباح بين فيليب وعمه وان تتصرف ازاءه وكان كل شئ طبيعى. وربما عرجاً على الخيول لاطعامها قبل قيامهما بنزهتهما المعتادة.

خرجت اندريا من غرفة الطعام وذراعاها حول جسمها اتقاء للبرد.

التقت بغاستون فى غرفة الطعام وكان يحمل سلة فيها حطب. افتر ثغرة عن ابتسامه عريضة عندما رآها ولمعت عيناه وقال :

«انظرى يا سيدتى. لقد ابتدأ الثلج يذوب أخيراً».

«هذا صحيح !».

اجابته اندريا وهى تنظر حولها وترد على ابتسامة بمثلها وكان فى قلبها غصة وفى نفسها مرارة. ابتدأ الثلج حقاً يذوب ولكن هل فات الاوان؟

٨- مصدر الفتنة

قرعت اندريا الباب مرات عدة قبل ان يفتح لها الان اخيراً. وما ان رآها حتى بادرها بالقول :

«انه نائم».

«هل هو بخير ؟».

«هذا يتوقف على تفسيرك للامور».

قال ذلك وهو يقف جانباً ليفسح لها الطريق لتصعد الدرج ثم تابع:

«انه طفل مشوش التفكير ومرتبك. ولا شك انك لاحظت هذا الامر بنفسك».

«لاحظت هذا بالفعل».

كان فيليب يرقد على السرير فى زاوية الغرفة وعلى جهة آثار دموع لم تجف. وكان تنفسه بطيئاً ومنتظماً ووجهه خالياً من اى تعبير.

«لقد راودته احلام غريبة ».

قال الان وهو يمسك ابريق الشاى بين يديه ويهزه قبل ان يضعه على النار. ثم اردف موضحاً كلامه :

«ما الذى جعلك تخبرينه قصة مارى دنيز وولدها؟ ».

«لم اخبره اى شئ من هذا. وهل تظننى على هذه الدرجة من الغباء؟».

«كلا بالطبع. لكن كان على ان اتاكد. ربما مدبرة المنزل، ما اسمها؟ كلوتيلد اظن، اخبرته».

«كلوتيلد لا تفعل ذلك. لانها تعتقد ان مجرد ذكر هذه القصة نذير شؤم».

شغل الان نفسه بتحضير الشاى. وكان غارقاً فى تفكير عميق عندما ناولها فنجانها. ثم قال ببطء وكانه يزن وقع كلماته :

«هل تعلمين انه يعتقد ان عمه يريد قتله؟».

«ماذا تقول؟».

«انها الحقيقة. فيليب يحمل فى رأسه اعتقاداً راسخاً بان زوج مارى دنيز كان يحمل هو الاخر ندبة فوق خده. وبان عمه - زوجك هو حفيده الذى سيجعل التاريخ يعيد نفسه. ولهذا السبب بالذات وضعه فى البرج.»

رشف قليلا من الشاى واستوى فى مقعده قبل ان يتابع :

«ما من مرة حضر فيليب الى هنا الا وراح فى سبات عميق. يبدو انه لا يعرف طعماً للنوم وهو فى ذلك البرج. حيث يستولى عليه الخوف ويمنعه من النوم. وحدث اكثر من مرة ان سمعته يهذى بكلام لم افهمه فى البدء اذ كان بالفرنسية. ولقد سمعته يردد كلمة «الندبة»

عدة مرات».

«هكذا دعا بليز هذا الصباح».

قالت اندريا وهى شاردة الفكر. ووضعت يديها حول فنجان الشاى تطلب الدفء وتطرد برداً تسلل الى كيانها. ونظرت الى الان... وتابعت:

«اشعر اننى مسؤولة الى حد ما. فانا اخترت البرج له ولم يدر بخلدى ان قصة مارى دنيز ستصل الى اذنيه، فمثل تلك القصص لا تروى عادة للاطفال وعلى الاخص لطفل مثل فيليب سهل الانقياد».

«ولكن من اين جاء بتلك الفكرة من أن زوج مارى دنيز كان هو الآخر يحمل ندبة فوق خده؟».

«لا ادرى. انا نفسى لم اكن اعلم هذا».

«بالطبع، فهذه قصة اخرى».

انعقد لسانها من فرط الانفعال لكنها اخيراً قالت :

«ذلك هو منتهى القسوة !».

«وبالفعل».

اجابها الان وهو يرشف اخر قطرة شاى فى فنجانه ثم اضاف :

«انا لا ادرى من هى سيمون هذه ولكننى على يقين من ان وجودها هنا هو مصدر الفتنه. ذكر فيليب شيئاً عن خلاف بينها وبين بليز على الوصاية».

«نعم».

اجابته اندريا بصوت خافت وتابعت :

«انها خالة فيليب ولقد ساءها ان يحرمها بليز من حق الوصاية على ابن اختها ولذلك رفعت القضية الى المحاكم لتنظر بقانونية وصية جان بول لوفالييه».

«آه انها بدون شك جميلة لكنها لا توحى الى بالثقة ولا تبدو لى من النوع الذى يتعلق بالاطفال. فاى مصلحة لها بالذات؟».

«لا شئ على ما يبدو».

اجابته اندريا وهى تحدق فى وجهه ثم اضافت :

«كان هناك بيت ومزرعة يطلقون عليها اسم «بيل ريفيير، وذهبت المزرعة وكذلك البيت طعماً للنيران فوضعت الدولة يدها على الارض بعد ذلك لقاء اجر بسيط تدفعه للورثة. ولم يبق اى شئ لفيليب. لكنه يبقى الوريث الوحيد لعمه».

«الى ان يرزق بليز بوريث من صلبه».

علا الاحمرار وجه اندريا عند سماعها تلك الكلمات وقالت وهى تحاول ان تتمالك نفسها وتبدو طبيعية :

«بالطبع. ان «بيل ريفيير» هى سبب هذا العداء القائم بين بليز وفيليب. لقد تسبب الحريق الذى التهمها بموت جان بول وهو شقيق بليز. بليز يعتقد نفسه مسؤولا عما حدث ويلقى اللوم على نفسه وفيليب كذلك يلقى اللوم كله على بليز. ومما لا شك فيه ان فيليب يحمل فى رأسه صورة مشوهة عن الواقع».

«انها ليست المرة الاولى فى التاريخ. فهى اعادة واقعة لقصة هاملت. ان يحاول احد تدمير انسان يبث السموم فى اذنيه فهذا يعتبر جريمة قتل فى نظرى».

كان فيليب فى تلك الاثناء يتقلب فى فراشه ويتمتم كلاماً غير مفهوم.

قام الان واتجه نحوه وانحنى فوقه وقال :

«مرحباً يا صغيرى. ها هى امرأة عمك أتت لتصحبك».

جلس فيليب وذراعاه حول ركبتيه وراح ينقل نظره من الان الى اندريا.

واستقرت عيناه اخيراً على اندريا وسألها بصوت كسير :

«أما زال عمى غاضباً؟».

«اعتقد بأنه متألم».

اجابته اندريا بصوت ثابت وبرغم ما أثارته كلمات الان من هواجس فى نفسها استطاعت ان تقول بهدوء :

«كيف تفوهت بتلك الكلمات يا فيليب؟».

هز الطفل كتفيه بكآبة وقال :

«ولكنها الحقيقة».

تنهدت اندريا بصمت وقررت ان لا تسترسل فى ذلك الحديث ليقينها بأنها لن تخرج منه بنتيجة مرضية.

مدت اندريا يدها لفيليب مشجعة وقالت :

«هيا يا عزيزى. تعال والا ظنت دلفين بانك هجرتها. يجب ان تقدم

لها الطعام».

كانا قد اقتربا من الاسطبل عندما سألته اندريا بلطف :

«هل تود ان انقلك الى غرفة اخرى يا فيليب؟».

اكتفى بالنظر اليها ولم يجبها ورأت ان توضح اكثر فقالت :

«يوجد غرف كثيرة فى القصر وبامكانك اختيار الغرفة التى تعجبك».

ابتلع ريقه بعصبية وهز رأسه علامة النفى.

«هل انت متأكد من ذلك؟ يمكنك ان تختار غرفة فى البناء الرئيسى وتكون عندها قريبا منى. صحيح ان البرج بعيد نوعاً ما ولكن يمكننى ان اسمعك ان انت ناديتنى فى الليل».

احنى رأسه وشرد فكره بعض الشئ ثم اجابها :

«اننى اشكرك يا سيدتى ولكننى افضل البقاء حيث انا».

كان غاستون على باب الاسطبل عندما وصلا اليه. وما ان وقع نظره على فيليب حتى انفجر بكلام غاضب بالفرنسية وكان يصرخ ويلوح بيديه.

تنهدت اندريا بنفاذ صبر وقالت :

«ما الامر الان يا غاستون؟».

«لا شئ يا سيدتى. فقط انظرى بنفسك».

قال ذلك وهو يشير بيده الى كومه من الخشب كانت على الارض بقربه.

لم تكن اندريا تعلم ان كومة الخشب تلك ما كانت الا المزلجة التى

كان غاستون قد انفق جهداً مضنياً لاصلاحها وتجديدها... واستقرت المطرقة التى افتقدها غاستون فى الصباح فوق كومة الخشب وكأن من انهال على المزلجة ضرباً قد حل به التعب فجأة فالقاها من يده.

صعقت اندريا لهذا المشهد ونظرت الى فيليب الذى وقف جامداً كالتمثال بقربها وشعرت وهى ممسكة بيده بأنه كان يرتعش من رأسه الى اخمص قدميه.

انحنت اندريا فوقه ونظرت فى عينيه وهى تخاطبه قائلة :

«لماذا فعلت ذلك يا فيليب؟ الانها كانت لعمك بليز؟ لقد كانت لوالدك ايضا. والان انظر ما حل بها !».

تخلص من يديها واندفع يعدو. التقط غاستون المطرقة ونظر الى اندريا بحيرة واضحة وقال لها بصوت كئيب :

«انظرى يا سيدتى. هذه هى المطرقة التى كنا نبحث عنها.

لكن اين الادوات الباقية. لماذا يريدها يا ترى؟ لاشك ان فى داخله شيطاناً».

«شيطان اليأس» قالت اندريا فى سرها وهى تبتعد بخطى مترنحة.

ازعجتها هذه الحادثة كثيراً وان دلت على شئ فعلى جنوح الى العنف مخيف. ما الذى دفعه الى ذلك العمل وهو الذى احب المزلجة من اول نظرة. واقبل عليها وراح يلعب ويتسلى بها كسائر الاطفال؟

لم تدر اندريا ان كان عليها ان تلحق به. فخبرتها فى التعامل مع الاطفال كانت محدودة ولم تكن لديها من تستشيره فى مثل تلك الامور.

ترقرقت الدموع فى عينيها وهى طريقها الى القصر وما ان وصلت اليه حتى اغمضت عينيها واسندت ظهرها الى الباب الكبير مستمدة من صلابة الخشب ومتانته عزماً جديداً.

«ماذا بك؟ هل انت مريضة؟».

جاءها صوت سيمون التى وقفت فى اسفل الدرج وفى يدها سيجاره راحت تنفض رمادها بعصبيه لم تلحظها اندريا فيها قبل تلك اللحظة.

«انا بخير».

«اين فيليب؟ ابتدأت باعطائه بعض الدروس وحان وقت الدرس الان».

«لابد انه يلعب فى الخارج».

اجابتها اندريا بشكل عفوى وفى داخلها صوت يقول بان سيمون لا يجب ان تعرف ما دار من احداث فى الصباح.

«يلعب ام يجلس مقطباً جبينه؟ انك تنسين مدى معرفتى به يا عزيزتى! وانا اقول لك بأنه طفل غريب الاطوار. فهو صاحب مزاج متقلب. وهو ليس قادراً على حجب الحب فقط، بل انه قادر على الكراهية».

غطت اندريا عينيها بيديها وبصوت وكانه آت من مكان بعيد قالت:

«ما هذه اللعبة التى تلعبيها يا سيمون؟ ما الذى تريدينه بالضبط؟».

«ليس هناك اى لعبة يا عزيزتى اندريا، صدقينى. كل ما فى الامر اننى رغبت فى ان اجعلك ترين الامور عى حقيقتها. لا ادرى ما الذى قاله لك بليز ولكن الا ترين انه من الافضل لفيليب ان يظل معى؟».

وفجأة ارتسمت على وجهها ابتسامة ساحرة واسدلت على عينيها

ستاراً من الرموش الطويلة السوداء وتوجهت الى اندريا تقنعها قائلة :

«من السخف ان نكون انا وانت على خصام. فاذا اقنعت بليز بالتخلى عن فيليب اخذته وخرجنا من حياتكما فى الحال. اما اذا بقى معكما فسوف ترين كيف ستتضاعف مشاكلك بعد ذهابى».

«انك حقاً مقنعة. لكن يجب ان تقنعى بليز وتتكلمى معه فى هذا الموضوع واعتقد بانه مصمم على الاحتفاظ بفليب مهما كان الثمن».

رمت سيمون بعقب سيجارتها على الارض وقالت بلؤم :

«لقد بدأ فعلا بدفع الثمن! وكان المستحق باهظاً. اليس كذلك؟».

توقفت قليلا لتتأكد من وقع كلامها على اندريا ثم تابعت :

«حتى انا استطيع ان اشفق على بليز. ليس بقليل عليه ان يضطر للاحتفاظ بزوجة لا يرتبط بها باى رابط غير ذلك الطفل ! لاشك ان زواجكما قسرياً وانا لم انخدع به على الاطلاق».

«اظنك تعنين زواجاً اضطرارياً. ولكنك على خطأ يا آنسة. ربما كانت البداية هكذا. لكننى اصبحت احب بليز واعتقد انه بدأ يبادلنى هذا الحب».

«مشاعرك نبيلة وآسرة يا سيدتى. غير انك ساذجة وتسمحين لعواطفك ان تتغلب عليك. انا لا اشك لحظة فى ان بليز يسوء ان يجعلك تعتقدين هذا فهو لا يستطيع البقاء عازباً. لن يدعك تتذمرين ولن يكون لديك ما تشتكين منه. انه عاشق ممتاز، هذا ان استطعت ان تتغلبى على نفورك من وجهه. انا شخصياً لم استطع !».

«ماذا تعنين بهذا الكلام؟».

«الا تعرفين حقا؟ فلقد كنا انا وبليز خطيبين».

«قبل الحريق الذى التهم بيل ريفيير؟».

«بالطبع. وعندما اخرجوه ورأيت ما حل بوجهه، اعترف بانننى جننت ولم استطع النظر اليه، وفى الحال تملكنى شعور غريب وهو اننى لن أتزوجه. كان هذا بالطبع مؤلماً لكينا. ولكن فى النهاية كان هذا اسهل على من محاولة اخفاء نفورى ومشاعرى فيما تبقى لنا من حياة معا. لقد كان ذلك مستحيلاً... الان ربما فهمت السبب فى اصرار بليز على حرمانى من الوصاية غلى فيليب. هذه طريقته للانتقام منى لاننى فسخت الخطوبة... كان من الممكن ان اكون الان السيدة لوفاليه ! اليس هذا غريباً؟ اتدرين انه مازال يريدنى؟ لكننى قطعت عليه الطريق. ليس بسبب الندبة فقط ولكن لأنك زوجته وتستحقين ولاءه. ولهذا عليك ان تشكرينى».

ثم أضافت فى الحال:

«لقد منحتك بليز ياعزيزتى، وانت الان مدينة لى وعليك ان تمنحينى فيليب فى المقابل».

استدارت اندريا لتواجهها مستجمعة كل ما تبقى لديها من رباطة جاش وقوة اعصاب واجابتها :

«انا لا ادين لك بشئ يا انسة. اما فيما يختص بفليب فانك لا تستحقية وبليز لا يستحقه».

الان فقط اتضحت امامها الصورة كاملة وكان عليها ان تتخذ

قرارها النهائى.

دخل غاستون غرفة الطعام ليشغل نار الموقد وما ان رأته اندريا حتى سألته اذا كان قد رأى فيليب. واستطاعت ان تبتسم له بمرح عندما اخبرها بانه قد رآه مع خالته يقومان بنزهة.

اشتد هطول المطر مع هبوط الظلام وغمرت المياه كل شبر فى الخارج وابتدأ الثلج يذوب.

دخلت اندريا البرج ورأت فيليب مستلقياً على ظهره واحدى ذراعيه خارج الاغطية. كان تنفسه منتظماً ولكنها عندما لمست جبينه وجدته ساخناً بعض الشئ. وكان على المنضدة قرب سريره قنديل صغير.

سمعت اصواتاً من غرفة الطعام وابقنت انه بليز. اخذت نفساً عميقاً ودخلت الغرفة. كانت سيمون تقف قبالة بليز.

رجع بليز بضع خطوات الى الوراء عندما راى اندريا تدخل الغرفة وبتهذيب وذوق سألها وهو يرسل اليها نظرة فيها تحذير واضح :

«هل تودين كوباً من العصير يا سيدتى :

قبلت اندريا عرضه وشكرته. وخطر لها ان تعتذر لقطع خلوتهما وتنسحب لكنها عادت وآثرت الحكمة والصمت.

«انك شديدة الشحوب يا عزيزتى».

جاءها صوت سيمون وكانه من واد سحيق وسمعتها تضيف باهتمام مصطنع :

«ارجو الا تكونى قد تعرضت للبرد مثل فيليب».

«لا اظن ذلك».

اجابتها اندريا واضافت :

«ولكننى اشعر بصداع هذا المساء».

تناولت اندريا الطعام بشكل آلى وبدون شهية وما ان وصلت السيدة بريسون بالقهوة حتى وجدت اندريا الفرصة مؤاتية لتستأذن بالانصراف ببضع كلمات متقطعة.

شق السكوت صوت بعيد ظنت اندريا انه صادر عنها ولكن...

«فيليب».

صرخت وبها رعب غريب. وبقفزة سريعة كان بليز يهرع إلى البرج.

كانت الصرخات تصم الاذان وعندما وصلت اندريا الى البرج اخيراً، وجدت السيدة بريسون فى الغرفة وكانت قد سبقتهما اليها وانحنت فوق فراش فيليب تحاول عبثاً ان تكلمه. كان جاثماً على طرف السرير وجسده الصغير يرتعد من رأسه الى اخمص قدميه. وكانت عيناه تنطقان بالرعب وكذلك شفتاه. التفتت اليهما السيدة بريسون وقالت بألم:

«سيدى، سيدتى».

«اسكت يا فيليب ! ما بك؟».

قال له بليز وهو يقترب من فراشه وينحنى فوقه مادا ذراعيه ليلتقطه بينهما. انتفض فيليب برعب ورمى نفسه على قدمى اندريا وتشبث بساقيها وبصوت متهدج ووجه بللته الدموع راح يصرخ :

«صاحب الندبة، صاحب الندبة، لقد اتى ليأخذنى، اجعليه يذهب ارجوك !».

«اسكت ياعزيزى».

قالت اندريا وهى تنحنى فوقه وتربت على رأسه بحنان واضافت :

«انا هنا الآن. لن يؤذنك شئ. لقد كنت تحلم؟».

«كان هنا. أتى ليأخذنى. كان سيقتلنى ولم اجد مكاناً اختفى فيه».

«ما هذا الهراء؟».

قال بليز بضيق وقلق وهو يزرع الغرفة. وما ان سمع فيليب صوته حتى اطلق صرخه اخرى وقال :

«صاحب الندبة، ها هو !».

«هذا عمك بليز يا حبيبى وهو يحبك ويريد ان يعتنى بك. اخبرك احدهم قصصاً سخيفة تحولت الى كابوس مزعج. هذا كل ما فى الامر».

«اجعليه يذهب، ارجوك».

نظرت اندريا الى بليز مستعطفة ولولا عضلة متشنجة كانت تنتفض فى وجهه لقالت انه تحول الى تمثال من حجر. وبعد فترة تأمل سمعت اندريا فيليب يتنفس الصعداء وهو يسمع وقع خطوات عمه تبتعد.

قالت السيدة بريسون :

«دعينى اهتم به».

«سأبقى معه بعض الوقت».

اجابتها اندريا وهى تهز رأسها ثم اضافت :

«من الافضل ان يبقى معه احد حتى الصباح ربما استيقظ مرة اخرى. اريد ان ابقى هنا قليلا وعندما يستغرق فى النوم يمكنك ان تأخذى مكانى».

اعادت اندريا فيليب الى فراشه وغطته جيداً وجلست قبالة سريره وبعد برهة شعرت اندريا بيد صغيرة تنسل الى يدها. اثار هذا المشهد مشاعر السيدة بريسون التى اغرورقت عيناها بالدموع وخرجت من الغرفة وهى تطلق التنهيدات. قال فيليب هامساً :

«اصبحنا وحدنا الان».

«نعم».

اجابته اندريا بحنان ورقة ثم قالت :

«والآن يا عزيزى هلا اخبرتنى بما اخافك هكذا؟».

«جاء صاحب الندبة ليقتلنى ويرمى بى الى الساحة».

«هذا ما تدعو عمك بليز به. وكيف يكون قد جاء الى هنا اذا كان كل الوقت برفقتى؟ اترى كم هذا مستحيل؟ بالاضافة الى ذلك هو يحبك ويريد ان يرعاك ووالدك بنفسه طلب اليه ذلك لانه يعرف انه الشخص الوحيد الذى يمكنه ان يحبك ويحنو عليك كأنك ابنه تماماً».

شعرت اندريا بعدم رغبة فيليب فى متابعة ذلك الحديث، الا انها تابعت قائلة :

«قل لى يا فيليب، من الذى قال لك ان زوج مارى دنيز وقاتل ولدها

كان يحمل ندبة عى خده؟».

قطب جبينه وبدا انه سيمتنع عن الاجابة ولكنه بعد قليل قال: «لا اذكر».

«لابد انك تذكر. اعتقد انه الشخص نفسه الذى اخبرك عن البرج وعن كل ما جرى فيها من احداث».

«كانت مجرد رواية وانا احب هذه القصص لذلك لايجب ان تغضبى على خالتى سيمون».

«لست غاضبة».

قالت وهى تجهد نفسها لتبقى صوتها طبيعياً واضافت :

«احياناً كثيرة يسئ الانسان فهم بعض الحقائق. حتى الخالة سيمون يمكنها ان تسئ الفهم. وزوج مارى دنيز لم يكن يحمل ندبة فوق خده، بل كانت تنقصه الشجاعة لينقذ حياة انسان اخر مثل مافعل عمك بليز مع والدك. اعتقد انه يوجد صورة له فى مكان ما فى هذا القصر. سنحاول العثور عليها غداً وعندها سترى انه لم يكن يحمل ندبة».

ظل فيليب صامتاً بعض الوقت قبل ان ينفجر قائلاً :

«لكن عمى بليز يريد فعلا ان يقتلنى من اجل المال كما فعل مع ابى».

«المال؟».

سألته اندريا وقد بدأت الحيرة تنهش نفسها فلقد كانت اول مرة يأتى فيها على ذكر المال.

جلس فيليب فى فراشه وقال موضحاً الامر :

«المال هو التعويض عن «بيل ريفيير» بعد ان التهمتها النيران. ان عمى بليز هو من اشعل النار فيه لكى يحصل على التعويض».

«هل تعنى ان بيل ريفيير كانت مؤمناً عليها».

سألته اندريا مستفسرة. احنى فيليب رأسه علامة الايجاب ثم قال:

«كانت مؤمناً عليها لقاء الاف والاف من الفرنكات. وكان عمى بليز بحاجة الى هذا المبلغ لذلك اشعل فيها النار وتسبب فى موت ابى».

واكمل فيليب كلامه قائلاً :

«واذا مت انا الان فان كل شئ سيؤول اليه انه فقير الان وسيصبح غنياً».

٩- من أشعل الحريق؟

فتح غاستون الباب فجأة وكان يمسح العرق المتصبب من جبينه. نظر الى اندريا وقال:

«السيد يبحث عنك».

ابتلعت ريقها. وقبل ان تخرج من المطبخ التفتت الى غاستون قائلة:

«اريدك ان تنقل سرير فيليب من البرج الى الغرفة التى سأريك اياها».

رفع غاستون عينيه الى السماء وكانه يتضرع الى الله ويشكو ظلماً نزل به وقال :

«هل نسيت ما تطلب نقل السرير الى البرج من عناء؟ والان على ان انقله منه، وماذا بعد ذلك، وبعد ان نقلت حقائب الانسة دولاتور الى السيارة؟».

ارسلت اندريا له ابتسامه عذبة وبصوت لا يرحم قالت :

«لاتخش شيئاً. لن يميتك هذا الجهد».

عندما وصلت اندريا الى القاعة استطاعت ان ترى من خلال الباب

المفتوح سيارة سيمون قرب المدخل. وما هى الا لحظات حتى رأت سيمون نفسها ولم تكن فى اناقتها المعتادة. كان شعرها مشعثاً وكانت تلهث. نظرت الى اندريا وقالت لها بمكر :

«هل جئت لتتأكدى من انصرافى يا اندريا؟».

«لا ارى ضرورة لذلك».

اجابتها اندريا بصوت هادئ وتابعت سيرها. فهى لم تشأ حفاظاً على كبريائها على الاقل، ان تسمح لسيمون ان تعرف بانها علمت بما جرى الليلة السابقة.

«بالطبع».

اجابتها سيمون واضافت :

«على ان اقامتى هنا كانت مثيرة ولقد اعطت النتائج التى كنت اود تحقيقها ولو بطريقة مختلفة».

توقفت قليلا ثم رمت اندريا بنظرة فيها من الكراهية الكثير وقالت:

«يسعدنى ان اترك لك الاجزاء المبعثرة يا عزيزى. اجمعيها ان كنت تقدرين !».

تذكرت اندريا وجه فيليب المبلل بالدموع ودوت فى رأسها صرخاته المستغيثة فتقدمت بضع خطوات وبنبرة فيها تهديد قالت :

«قد لا املك القوة الجسدية لاقذف بك الى الخارج ولكن يسعدنى جداً ان احاول على الاقل !».

غمر اندريا شعور بالرضا وهى ترى سيمون تلوذ بالفرار عند سماعها تلك الكلمات. رأتها تهرول الى سيارتها وباصابع مرتبكة ادارت محرك السيارة. وقبل ان تنطلق ارسلت الى اندريا نظرة حقد وكراهية وقالت :

«احتفظى بقواك يا عزيزى. فجميع الخاسرين يحتاجون عادة الى قوامهم».

وتوارت عن نظر اندريا مخلفة وراءها سحباً من الغبار.

دخلت اندريا الى القاعة واغلقت الباب وراءها. بحثت عن بليز فلم تجده. استجمعت شجاعتها وصعدت الى غرفة النوم علها تجده فيها.

كان بليز قرب النافذة ونظره الى الخارج. ربما كان يراقب رحيل سيمون انتظرت اندريا ليشعر بوجودها والغيرة تنهش صدرها. ظل ساكناً لا يتحرك واخيراً قال بدون ان ينظر اليها :

«انتظرت طويلاً ليلة امس. اين كنت؟».

بللت شفتيها بلسانها وقالت بفتور :

«كان فيليب بحاجة لى».

«كنت فى الماضى اتحول الى اشياء اخرى ادفن فيها كربى اما الان فارانى اسعى اليك انت لتداوى جروحى».

«انا بحاجة أيضاً الى من يداوينى».

«اذن علينا ان نداوى بعضنا البعض».

اجابها وهويقترب منها وينظر فى عينيها ويضيف :

«انظرى الى يا حلوتى».

اندفعت من بين يديه وهى تصرخ :

«لا تلمسنى !».

«ولكن هذا لن يثنينى يا حلوتى ! سيحدث حينما وكيفما اشاء حتى يتوقف رأسك العنيد عن صدى وترجع الى المرأة التى عرفت !».

«لقد اخذت كل الدروس التى احتاجها على يديك يا بليز. فانت استاذ رائع وخبرتك لا تضاهى فى هذا الميدان ولكن عليك ان تقفل مدرستك الآن لاننى تلقيت دعوة من عائلة عمى لحضور عرس كلير».

اجابته وعيناها لاتبرحان وجهه.

«وكيف انسى كلير؟».

قال بمرح ثم اضاف :

«من الصعب على ان اترك القصر فى هذا الوقت ولكن لابأس ساتدبر الامر.

هزت اندريا رأسها وقالت :

«لاحاجة لاصطحابى. سآخذ فيليب معى ان سمحت لى بذلك ولقد وجهت لنا امرأة عمى دعوة لنمضى بعض الوقت بينهم».

ظل بليز صامتاً وعندما نظرت اليه اندريا رأت عينيه تضيقان ثم سمعته يقول :

«ولم لا اذهب معكما؟».

WWW.BEWEEK.COM

وبضيق ونفاذ صبر وجدت اندريا ما تقوله فشرحت :

«اولا سيسبب حضورك احراجاً لكلير و...».

قاطعها قائلاً :

«اريد الحقيقة يا اندريا».

«حسناً».

اجابته وتابعت :

«الحقيقة اننى اريد ان ابتعد عنك لبعض الوقت وفيليب كذلك بحاجة لان يبتعد فهو ليس سعيداً هنا كما تعلم».

«ولكن هنا بيته ولا بيت له سواه».

«صحيح ! وهو ما لايمكنك ان تنساه !».

هزها بعنف وبصوت كالفحيح قال :

«وماذا تعنين بذلك يا زوجتى العزيزة؟».

صرخت من الالم وقالت:

«خذ المال يا بليز ودعنا نذهب. اعدك باننا لن نزعجك ثانية. بوسعى ان اعيل فيليب وربما عدت الى وظيفتى القديمة...».

وتوقفت بدون ان تكمل فالتعبير الذى ارتسم على وجهه افقدها النطق تقريباً.

«اى مال؟».

سألها بهدوء.

«قيمة التأمين على بيك ريفيير».

اجابته وكانت قد ابتدأت تشعر بوهن واضافت :

«فيليب يعرف كل شئ وهو لذلك يخافك. هو ليس واثقاً من ان موت والده كان حادثاً ويتوقع انه سيكون الضحية التالية واذا استطعت ان ابعده عن هذا المكان ربما نسى الامر واستعاد طفولته مع الزمن».

شحب وجهه ورأت اندريا الشرر يتطاير من عينيه واليأس يغلفه واخيراً قال بصوت أجش :

«لو ان احداً غيرك قال هذا لقتلته !».

ودفعها عنه باشمئزاز فترنحت وكادت تقع ثم تابع :

«لست وحدك من استلم رسالة هذا الصباح يا سيدتى».

قال هذا واخرج من جيب سترته مظروفاً كبيراً ولوحه بوجهها وتابع :

«يسعدنى ان اترجم لك مالا تستطيعين فهمه بالفرنسية ولكننى اريدك ان تقرأى ما بداخله».

تناولت منه المظروف منه واخرجت منه رسالة راحت تقرأها. واحتوى الظرف اوراقاً كثيرة وصوراً ومستندات ووثائق رسمية ورسالة تحمل توقيعاً غريباً.

استطاعت ان تفهم بعض العبارات وسألها بليز وهو يشير الى الرسالة باصبع مرتجفة :

«هل تريدين اية مساعدة؟ انها كما ترين من شركة التأمين وهم

يقولون فيها بان الشركة قد انهت التحقيق وان لديهم الدليل بان الحريق الذى التهم «بيل ريفيير» كان مفتعلا وهم لذلك لن يدفعوا اى تعويض. اظن اننى قلت لك فى السابق انه لم يبق شئ من بيل ريفيير الا قيمة الايجار الذى تدفعه الدولة. هذا كل ما يملك فيليب بالاضافة طبعاً الى سقف بيتى فوق رأسه وعاطفتك اللامتناهية».

«انهم يعرفون اذن بان الحريق كان مفتعلاً».

«بالطبع يعرفون فهم ليسوا اغبياء. ولو ان جان بول كان فى حالة طبيعية لادراك هذا هو الاخر ولم يراهن بكل ما يملك على تلك المحاولة اليائسة وخسر بالنتيجة كل شئ حتى حياته».

اذن لقد كان جان بول اى والد فيليب من اشعل الحريق. صفعتها الحقيقة المرة ولكنها فى الوقت نفسه احيت بداخلها شعوراً كادت تفقده.

«كما ترين فان جان بول هو الذى اشعل النار وكان همى الوحيد ان لا يكتشف فيليب هذه الحقيقة. ولطالما اقنعت نفسى ان كرهه لى هو دسيسه من سيمون التى ارادت ان تنتقم منى على ابشع صورة وعندما استلمت هذه الرسالة اعتبرتها كاشارة من السماء لكى اضع كل الماضى وراء ظهرى ولا اتطلع الا الى مستقبل مشرق. لقد اتضحت الحقيقة كلها اخيراً وآمل ان يأتى يوم استطيع ان اطلع فيليب عليها وابرئ ساحتى».

«لقد اخطأت فى حقك وانا آسفة لذلك».

«لا تدعينا نتكلم عن الاخطاء يا عزيزتى. فأنا ايضاً اخطأت فى

حقك عندما ارغمتك على الزواج منى. ولكننى على استعداد الان لان اصلح خطأى. لن اتمسك بوعدك على البقاء سنة. يمكنك ان تذهبى ساعة تشائين».

تنهدت اندريا بألم وفى اللحظة ذاتها تناهى الى اذنيها وقع خطوات سريعة وادركت بغريزتها بان شيئاً ما ليس على ما يرام. ولكنها لم تكمل فقد فتح الباب فجأة وظهر غاستون لاهثاً وقال :

«فيليب غير موجود يا سيدى. لم نعثر عليه فى اى مكان وثيابه لاتزال مكانها».

خرجت من بين شفتى بليز عبارات ضيق وغضب وانطلق يعدو وهو يسأل :

«هل ذهب مع الانسة دولاتور؟».

هز غاستون كتفيه واجاب :

«وضعت الحقائب فى سيارتها يا سيدى ولكن لم يرها احد تنطلق».

«انا رأيتها».

اجابت اندريا وتابعت :

«ولكننى لم ار فيليب. ربما خبأته بين الحقائب فى السيارة فلقد بدا تصرفها غريباً».

التفت بليز الى غاستون وقال له بصوت فيه الحاح :

«اسرع واحضر السيارة اللاند روفر وسنلحق بها. لايمكن ان تكون

قد ابتعدت كثيراً فالطرق مازال شبه مقفلة فى بعض الاماكن».

«هل يمكننى مرافقتكما؟».

سألته اندريا متوسلة.

«كلا».

اجابها بدون ان ينظر اليها ثم اضاف :

«لقد ذكرت امس ان صحته لم تكن على ما يرام ومن الافضل اذن ان تبقى هنا وتحضرى له فراشه وتستدعى الطبيب.؟ اطلبى الى صديقك الانجليزى ان يذهب الى القرية ويستدعى الطبيب حالاً».

خرج بليز من الغرفة وغاستون فى اعقابه وما ان اصبحت اندريا وحدها حتى استبدت بها افكار مقلقة.

اتجهت اندريا الى سرير فيليب وراحت تشغل نفسها فى ترتيبه. شعرت بجو البرج الخانق لاول مرة منذ وطئت قدماها هذا المكان.

فجأة تناهى الى اذنها نشيخ غريب وكانه بكاء طفل. تسمرت فى مكانها وراهفت السمع.

ظنت اول الامر ان خيالها المحموم جعلها تسمع اصواتاً غير موجودة لكن النحيب عاد هذه المرة ايضا وكانه من مكان قريب. سمعته خافتاً وبائساً ثم انقطع.

وقف تحدق فى ارجاء تلك الغرفة المستديرة ونادت «فيليب» عدة مرات. ركعت على الارض ونظرت تحت السرير. فتحت الخزانة وفتشتها لكنها لم تر ذلك الجسم الصغير الذى كانت تبحث عنه.

عاد النشيج ملحاحاً ثم تحول الى انين متواصل لبرهة من الزمن ثم انقطع. بدا لاندريا ان الصوت صادر من مكان ما فوق رأسها.

ضغطت بيدها على صدغيها طلباً لبعض الصفاء فى ذهنها.

تذكرت فجأة سلوك فيليب الشاذ كلما اتى على ذكر سيمون. هل كان يعلم يا ترى انها هى من اخفى الادوات وكتم ذلك الامر ولاء منه لها؟ والمزلجة؟ من انهال عليها بالضرب هكذا ولم يتركها الا كومة من ركام؟ كان من السخف الصاق هذه التهمة بطفل صغير وهو عمل عنيف يعجز عنه من كان اكبر من فيليب واقوى. ايقنت اندريا ان فى الامر سراً وان عليها ان تكتشفه.

راحت تقرع باب السقف بيدها وتنادى فيليب باسمه. ظنت انها سمعت صوتاً خافتاً وكان هذا كافياً بالنسبة اليها. هبطت الدرج كالصاروخ واصطدمت بالان الذى كان قد وصل لتوه.

«هدئى من روعك».

قال لها الان وهو يسندها بذراعه واضاف :

«الطبيب فى طريقه الان».

«إن فيليب فوق فى مكان ما فوق العلبة. علينا ان نخرجه فى الحال. تلزمنا بعض الادوات».

قالت اندريا بصوت متقطع وكأنها تزدرد الكلمات وتابعت :

«وضعته فوق واوصدت الباب !».

«لابد انك تمزجين ! ومن يقدم على مثل هذا الاجرام؟».

«هى».

«انتظرى هنا ربما استطعت ان اجد أدوات تساعدنا».

رجعت اندريا الى البرج وتسلقت السلم المؤدى الى الباب السحرى فى السقف وحشرت نفسها تحت الباب مباشرة حتى كاد فمها يلتصق بخشبه وراحت تناديه وتغنى وتروى له الحكايات المسلية ولم تسمع الا صدى صوتها.

«هل حالفك الحظ؟».

سألها الان الذى عاد يحمل بين يديه فأساً :

«انه لا يجيب».

قالت وعيناها على الفأس ثم اضافت بقلق ظاهر :

«ربما كان فوق الباب مباشرة فكيف ستكسره اذن؟».

«كلميه وقولى له ان يبتعد عن الباب قدر الامكان وباننا سنحاول فتح الباب ونخرجه».

اطاعته اندريا بشكل آلى وكانت تشعر بخدر فى جسمها ثم نزلت عن الدرج بسرعة بينما استعد الان ليكيل الضربات الى الباب. كان الخشب قديماً وابتدأ يتداعى تحت وطأة ضربات الان.

«ساحدث فتحة فيه. هل تظنين انه بامكانك ان تدخلى منها؟».

حشرت نفسها فى الفتحة وشعرت بقشور الخشب تخدش جلدها وعلق سروالها باحداها. كان الدم يسيل من يديها عندما وصلت اخيرا الى حيث كان يرقد فيليب فاقد الوعى. ركعت بجانبه وتحسست

جسمه الصغير فوجدته بارداً كالثلج. خلعت سترتها ولفتها حوله وصرخت تنادى الان وتخبره بانها وجدته فليسرع الى كلوتيلد ويطلب اليها ان تحضر بعض الاغطية الدافئة وشراباً ساخناً وقالت :

«سابقى معه بانتظار الطبيب. وارجوك يا الان ان تسأل كلوتيلد ان تحضر له الحمام».

ضمته اليها بشدة لتعطيه بعضاً من دفئها. ارتعش بين ذراعيها وفتح عينيه ونظر اليها. ظنت اندريا لاول وهلة انه لم يعرفها.

«فيليب».

نادته وهى تنحنى فوقه وتضغط بشفتيها على شعره المشعث وقالت:

«انا اندريا. انظر الى».

ومضت عيناه وقطب جبينه وسألها بحيرة :

«هل انتهت اللعبة؟».

«اللعبة؟».

سألته اندريا مستفهمة فاجابها شارحاً لها ما التبس عليها :

«كانت الخالة سيمون تقوم بدور مارى دنيز وكان على ان لا ادع ذا الندبة يجدنى لذلك اصعدتنى الى هنا وذهبت. شعرت بالبرد وانتابنى رعب شديد عندما شعرت ان غيابها قد طال».

«بالطبع انتهت اللعبة».

اجابته اندريا وهى تشعر بغصة فى صدرها وتابعت :

«والان يمكنك ان تأوى الى فراشك بعد ان تتناول شيئاً ساخناً».

«حسناً».

اجابها ثم نظر اليها وسألها بدهشة :

«اندريا لماذا انت بدون ثياب؟».

«لانك ترتدى سترتى وانت تبدو مضحكاً فيها. انظر كم هى الاكمام طويلة واذا ما رفعت القبة يختفى فيليب تماماً».

اجابته بمرح ورفعت قبة السترة حتى غطت رأسه كله.

اطلق بدوره ضحكة خافتة وقال :

«فعلا انه امر مضحك... وجودى هنا».

«بالفعل».

«اندريا، انا لا اريد القيام باى دور فى قصة مارى دنيز بعد اليوم.

اتعرفين انها حطمت مزلجتى؟».

«من الذى كسر المزلجة؟ مارى دنيز ام الخالة سيمون؟».

سألته اندريا وقد لاحظت كيف اختلطت عليه الامور فراح يخلط الواقع مع الخيال.

«لا ادرى».

اجابها بعينين نصف مغمضتين ثم تابع :

«كان يتلبس على الامر فى كثير من الاحيان. قالت لى الخالة سيمون انها هى مارى دنيز وكيف يمكنها ان تكون مارى دنيز والخالة

سيمون فى الوقت نفسه؟».

«هى ليست مارى دنيز ولا يمكن ان تكون مارى دنيز كما لا يمكن لعمك بليز ان يكون من تسميه : ذا الندبة».

سمعت اصواتاً ووقع خطوات فى الغرفة تحتها فنادت :

«الان، اصعد الدرج وسأناولك فيليب».

حملته بين يديها بحذر بالغ واتجهت صوب الفتحة وركعت قربها وقالت مخاطبة فيليب:

«اسمع ايها البطل ! علينا ان نخرج من هذه الفتحة. يمكنك ان تتظاهر بانك رزمة بريدية سيتناولها منى الان».

ضحك فيليب من اعماقه وكان على اندريا ان تقاوم رغبة بضمه اليها والتشبث به بين ذراعيها. لكنها بدلا عن ذلك قالت :

«هيا. احذر القشور وتذكر ان الرزمة لا تلتوى. نعم هكذا عافاك».

كانت تثرثر هكذا وهى تنزله من الفتحة.

«سأتناوله انا».

جاءها صوت بليز وشعرت بفليب يتشنج بين ذراعها. اطلق تنهيدة عميقة وفجأة اختفت التشنجات. وما هى الا ثوان وكانت يد بليز القويتان تتناولانه منها وتنزلانه بحذر وثقة.

«هيا يا صغيرتى».

سمعته اندريا يقول ثم تابع :

«هل تريدين ان تنتظرى لنفتح الباب؟».

سألها بليز.

«كلا».

اجابته واسنانها تصطلع من البرد وتابعت :

«اظن باننى لا ابالى بالقشور المؤلمة فانا اشعر ببرد شديد».

انزلت قدميها وشعرت بيدين قويتين تسددان خطواتها على السلم انزلقت اخيرا من الفتحة وعلقت احدى القشرات بذراعها فسال دمها. ساعدها بليز على النزول. رأت الان واقفاً والفأس بيده.

قال لها ما ان وقع بصره عليها واصطبغ وجهه بلون احمر قان.

تخيلت الصورة التى بدت فيها امامها : سروال من قماش الجينز ممزق ومتسخ وصديرية من الدانتيل لا تغطى شيئاً. وكأن بليز قرأ فكرها فاسرع يخلع سترته ويضعها حول كتفيها. شكرته ثم خيم على الغرفة صمت قطعه الان بصوت حرص ان يأتى طبيعياً حين قال :

«يجب ان اذهب لكن على قبل ذلك ان اعيد الفأس الى مكانه».

اطلق ضحكة مرحة وانصرف وهو يصفر لحناً شجياً.

وما ان توارى عن نظرهما حتى قالت اندريا بلطف :

«كان فى غاية اللطف».

«اعتقد انه واقع فى حبك».

«كلا، لا اظن ذلك».

«لكنك لست خبيرة فى هذه الامور وانت لا تميزين الحب الصادق عندما يعرض عليك، اليس كذلك يا صغيرتى

لم يكن لديها ما تجيب فلزمت الصمت.

بعد قليل قال :

«لقد وجدنا سيمون. وكانت قد انحرفت بسيارتها عن الطريق وارتطمت بحائط».

«هل لحق بها اى اذى؟».

«كلا انها حريصة جدا حين تكون المسألة مسألة بقاء. لم تكن بحاجة الى اقناع كثيرا لتخبرنا اين وضعت فيليب. زعمت انها مجرد مزحة ولكنها لم تعد تعتبرها مزحة عندما لمست اننى لست على استعداد لارجاعها الى هنا او حتى الى توصيلها الى اقرب كاراج».

«تعنى انك تخيلت عنها هناك؟».

«لابد ان يجدها احد عاجلا ام اجلا. وكما قلت لك هى حريصة جداً على حياتها وقادرة على الاحتفاظ بها بعكس فيليب. وعلى ان اشكرك لان سرعة خاطرك هى التى اسعفته فى الوقت المناسب».

«لست بحاجة الى شكر. انا احبه وسأفتقده كثيراً».

اجابته بصوت خنقته العبرات.

خيم بعد ذلك صمت مشحون قطعته اندريا بسيل من الكلمات، فراحت تقولها بسرعة لئلا تخونها شجاعتها فتتوقف. قالت :

«اعرف ان لا شئ يمكن ان يمحو اساءتى اليك يا بليز. لم يكن لها

اى مبرروالكن اريدك ان تعرف اننى آسفة.

رفع حاجبيه وقال بمرح وهو يمد يده :

«اذن اعطنى سترتى من فضلك».

«لا تكن خبيثاً».

قالت له وهى تتشبث بالسترة ثم سألها :

«هل فعلا تخجلين عندما انظر اليك؟».

«كلا الا اذا كان النظر لمجرد تلقين درس او لانك تريد وداعى. ففى الحالتين اجد الامر رهيباً ولا يحتمل».

«وان قلت لك بانك اجمل ما فى الدنيا بالنسبة الى ولا فرق ان كنت على ظهر جواد تمتطينه. او كان الغبار يكسوك او كنت مرتدية ثيابك البسيطة فانا اريد ان اظل انظر اليك طوال عمرى. وهل تظنين باننى سأسمح لك بالابتعاد عنى؟».

«اوه يا بليز».

اجابته والدموع تنهمر من عينيها ثم اكمل :

«لست اعرض عليك الكثير فانت تعرفين وضعى ووجود فيليب معنا من شأنه ان يعقد بعض الامور وانت تعرفين شعوره نحوى».

«سوف تتحسن الامور عندما لا يعود طفلا وحيداً».

اجابته بابتسام ثم قالت :

«اوه يا بليز كم احبك !».

وتذكرت فيليب فقالت :

«علينا ان نذهب للاطمئنان على فيليب».

«فيليب بخير وهو الان موضع اهتمام لم يعتده وعناية لم يألفها مع سيمون. لا تتعجلى مغادرة برجنا العاجى يا اندريا ففى الدنيا ويلات ومآس كثيرة كما اكتشفت ذلك بنفسك».

«لكننا لن نسمح للدنيا ان تنال منا بعد الان».

«بالطبع».

قال لها وهو ينظر إليها بحب ثم تابع :

«على انه لا يجب ان تتوقعى المعجزات. لا اريدك ان تتألمى بعد اليوم».

«كيف اتألم وانت بقربى تداوينى؟».

شعرت بأنها كالفراشة تطير فرحاً فى الهواء. فاخيراً ملاذها فى هذا المكان حيث تهب العواصف.